رواية قصيرة

سلام بين ثنايا الحرب

زياد طارق العنائقي

٢٠٢٠

.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ
مَن دَسَّاهَا * الشمس ٧–١٠

الاهداء

الى تلك النفوس التي تمسح الرين عنها في أقسى الظروف تعاسة،

فتضوّعت سلاما عطرا كنرجس أو عنبر.

اعتاد سلمان أن يصل بالستوتة [1] إلى وسط شارع أبي القاسم [2] محمّلة بما يتمكن الحصول عليه من الخضروات الطازجة، فزبائنه يحبون شراء تلك المواد حينما يعلمون انها جُلبت من البستان مباشرة.

آنذاك كانت عجلة صغيرة للجيش الأجنبي تأتي في بعض الأيام لتقف في مكان غير بعيد، فتنزل منها امرأة بيضاء وردية قوامها رشيق تلبس البنطلون الخاكي وتي شيرت بنياً فاتحاً، تضع نظارة سوداء تحجب عينيها، تتدلى على وجهها خصلات من شعرها الأشقر القصير الذي يشبه تسريحة الرجال. تثير انتباه المارة والنظّار، أما عيون سلمان فكانت تترقبها من طرف خفي، وكأنه لا يراها أما هي فقد كانت لا تعير احداً أي اهتمام، سوى ابتسامة بسيطة مرسومة على شفتيها الدقيقتين وهي تمشي رافعة رأسها لا تلتفت يمينا ولا شمالا، كأنما تقصد مكانا محددا تعرفه جيدا.

كان سلمان يتحين الفرص ليشبع عيونه وروحه منها، فذلك القوام الممشوق وتلك البشرة البيضاء الوردية الرقيقة لم تكن معهودة عنده ولم ير مثلها في قريته التي يأتي منها كل يوم ويعود اليها عصرا، فقد كانت

(١) الستوتة: دراجة بخارية خلفها عربة لنقل البضائع.

(٢) شارع أبو القاسم: من أقدم الشوارع في وسط مركز مدينة الحلة.

نساء قريته الواقعة على أطراف المدينة يتلفعنَّ بالعباءة المشدودة على خصرهن بطريقة معروفة في تلك الأماكن، ولم تكن تثيره احداهنَّ، وهو أيضا لم يكن الشاب الذي يثير اعجابهنَّ بفقره وضيق حاله ووحدته، فقد كان يسكن في بيت جده الطيني وسط بستان صغير تلفُّه أشجار الرمان والتين وبعض النخيلات في وسطه، أرضه مزروعة بخضروات يقطف منها ما تجود به، وإن لم يكن زرعه كافيا للبيع فقد كان يشتري من جيرانه ما يحتاجه ويحمِّله على (الستوتة) التي يملكها وينطلق بها كل يوم إلى شارع أبي القاسم وسط الحلة.

لم تكن صورة المرأة تفارق ذهنه منذ ان رآها، فكان الطريق إلى بيته وليله الذي يقضيه وحده أمام موقد النار خير مؤنس له ولتأملاته وأحلامه الوردية وهو يتأمل مشيتها وقوامها، لكنه كان ينزعج من المترجم المرافق لها، الذي كان يمشي خلفها بخطوات. فقد كانت الغيرة تأكل قلبه حينما يراه يحدثها في بعض الأحيان. فيفقده انزعاجه هذا تتابع أحلامه فتعود نفسه إلى حاله التي هو عليها، بيته الذي ورثه من جده مبني من الطين، فقره الذي لا يؤهله أن يكون ذا مكانة اجتماعية بين ابناء قريته، كانوا يقولون عنه (فقير من أهل الله)، وهو اليتيم الأبوين الذي تربى في كنف جده لأبيه، حتى اقربائه لم يكن أحد منهم يجرؤ ان يزوجه إحدى بناته ظنا منهم إنه لا يقدر على كفالتها مع عسر حاله، فينام قبالة موقده حينما

تخبو جمرات ناره، متدثرا بحزنه وحيرته ووحدته، يفكر كيف سيتمكن من إثارة انتباهها اليه: هل أدعوها لتنظر إلى بضاعتي؟ ولكن كيف لها أن تفهم ما أقول؟ آه نعم، حينما يمر المترجم بقربي سأرفع صوتي مناديا على بضاعتي ربما، ربما تكون له حاجة للخضروات فأسأله عنها، وهكذا نام سلمان على آمالٍ لا طائل منها.

حينما وصل إلى شارع أبي القاسم في اليوم التالي كان قد عقد العزم على تنفيذ ما فكر به في تلك الليلة قرب الموقد. فركن دراجته وكشف الغطاء عن الخضروات وراح يرتبها وينادي عليها وعيونه تترقب المارة لعله يحظى بنظرة او التفاتة من تلك المرأة التي أخذت مجامع قلبه، فكان يبيع وهو ساهم مشغول البال حتى انتبه من غفلته حينما تحدث معه أحد زبائنه قائلا:

. سلمان صباح الخير، أراك اليوم شارد الذهن مشغول البال، خيرا؟ هل حدث مكروه؟

- سلمان: لا، أنا بخير، لم يحدث شيء، أنا فقط تَعب قليلا.
- الزبون: نعم لك الحق فعملك متعب وطريقك أيضا، إذا احتجت إلى شيء نحن بالخدمة.

- سلمان: شكرا لك (أبو محمد)، سأذهب لأرتاح بعد قليل. ثم عاد إلى بضاعته وافكاره: كيف لي أن ارتاح وهي لم تأت إلى الآن؟ ترى ما الذي حدث لها؟ هل نقلوها إلى مكان آخر؟ يقولون انهم لا يستقرون في مكان واحد، يا الله، ماذا أفعل لو إنها نُقلت؟ أُف لك سلمان، ما بك؟ ما الذي جرى لك؟ أنظر لحالك، لرزقك وابعد عنك هذه الأفكار، أنت في قريتك لم تحظ بامرأة، أفتحظى بهذه؟ مستحيل، آه لا طائل من هذه الأفكار سأذهب إلى بيتي وأنظر في أحوال مزرعتي ورزقي. ثم لملم حاجياته وغطاّها من بعد أن رزمها على عربة الدراجة وانطلق بها إلى بستانه.

في صباح اليوم التالي نهض سلمان من نومه على صياح الدِّيكة وأصوات العصافير التي اتخذت من أشجاره ملاذا لها، فذهب إلى عنزته يستجدي منها قليلا من الحليب وضع فيه كسرات من الخبز من بعد أن سخن الشاي الذي بقي عنده من الليلة الفائتة ذات الأحلام المكبوتة والآمال اليائسة. ثم راح يقطف من مزرعته الصغيرة ما نضج من ثمار الخضروات، وهو منهمك بعمله خطرت في ذهنه فكرة:

ماذا لو حملتُ معيَّ بضاعة قل وجودها في السوق؟ لا ليس كذلك بل بضاعة تعجبها، ولكن. من أين لي أن أعرف ما الذي يعجبها؟ آه لوكنت أستطيع التحدث مع المترجم. لا، لا، التحدث مع المترجم خطر عليَّ، ماذا سيقول عني الشارع؟ من المؤكد أنهم سيقولون إني أتجسس عليهم

وربما يظنون أنى عميل للأجانب، حينها سيقاطعونني، وربما أتعرض للقتل. لا، لن أتحدث مع المترجم فعيون الناس في الشارع تراقب كل شيء وأنا غريب بينهم، لو نَمَتْ في ذهن أحدهم إني عميل أو جاسوس سوف يتناقلون ذلك وكأنه حقيقة وسوف يبتعدون عني وينقطع رزقي، لا سلمان، كن عاقلا واحرص على رزقك، ما لي وهذه المرأة أين أنا منها.

أعرض سلمان عن هذه الأفكار وراح يحمل ما تحصّل له من الخضروات على (ستوتته) التي اشتراها له جده لتعينه على تأمين معيشته اليومية.

وصل إلى شارع (أبي القاسم) فركن دراجته قرب دكان (أبو علي) بائع الشاي ثم رتب خضرواته منتظراً زبائنه وهو يتلذذ بشايه:

- لعلها تأتي اليوم وترتاح نفسي لرؤياها، آه سلمان قبل قليل أعرضت عن هذه الأفكار، مالكَ عدتَ إليها؟ ألا تتوب؟ يا رب ساعدني لقد أكلت دماغي وقلبي.

بدأ الناس يتوافدون إلى الشارع متجهين إلى مركز المدينة عبر الأزقة المطلَّة على السوق الكبير أو عِبر شارع (أبو القاسم) المؤدي إلى ساحة بيع الملابس.

اجتمع حوله بعض زبائنه من اصحاب الدكاكين وبعض المارة وهم ينتقون من بضاعته ما يرغبون، وعندما ذهبوا بقي عنده زبونان من اصحاب

الدكاكين وهو منشغل معهم يرتب خضرواته ويزن ما يريدان رفع أحدهما حبة رمان قائلا:

- ما أطيب هذا الرمان، وأخذ يتضاحك هو وصاحبه الذي كان معه.

وسلمان مازال مطرقا متوجها إلى عربته، فأعاد الرجل الكلام مرة أخرى بصوت مرتفع ينبه سلمان ويغمزه بيده مشيرا بعينه إلى الشارع:

- سلمان، ما أطيب هذا الرمان.

فانتبه سلمان إلى إشارته، وإذا به يراها قادمة تمشي كأنها مليكة تستعرض أمام شعبها، فحدّق سلمان فيها النظر عسى أن يُشبع أنظاره وفكره وقلبه منها، فهي ما تلبث ان تذوب بين الناس والمحلات التجارية، حتى أن الزبونين قد لاحظا انشغال سلمان بها، فقد كانت عيناه مسمّرتين عليها وكفاه تأخذ من البضاعة وتسقطها على الأرض من فرط انشغاله، فداعبه أحدهما:

- سلمان ما بك؟ بضاعتك على الارض، هل تخليت عنها؟ (ثم ضحك بصوت مسموع).

فأحس سلمان بالإحراج الشديد، وراح يشيح بناظريه عنها متشاغلا ببضاعته تارة وبالناس تارة أخرى وهو يجمع ما أسقطه على الأرض من

الثمار والخضروات. محدثا نفسه: يا ويلي، ماذا فعلت؟ كيف فعلت هذا؟ كيف نظرت اليها بهذا الشكل وقد رآني هذان؟ ماذا سيُقال عنّي؟ عيب، عيب يا سلمان ما فعلته، أضبط نفسك أو اذهب إلى مكان آخر. (لقد كان سلمان يعرف أن إظهار الرغبة بها سيعرضه للمتاعب وهو الشاب الذي يحمل العادات والتقاليد التي تحرم عليه المساس بأعراض الناس). يا ويلي، سأكون محط سخريتهم وسيتحدثون عنّي ويمزحون كلما رأوها تمر بالشارع، وربما ينادون عليّ ويتغامزون ويلفتون الانظار اليُّ. فعزم على تبديد هذا الذي عرفوه من أفكارهم قائلا:

- لا ليس الأمر كما تظنون، أنا أنظر إلى (أبو كريم) الحمّال وهو يدفع عربته بصعوبة، إنه يحمل فيها الأثاث الثقيل، لقد هممت أن اذهب لمساعدته وهو رجل كبير السن، لكني شاهدت شابين قد أخذا منه العربة يدفعانها باتجاه زقاق الشيخ الدمستاني(٣)، ليس لي شغل بهذه المرأة أو غيرها، ولم أفهم انك تقصدها حينما رفعت صوتك قائلا:((ما أطيب هذا الرمان)).

---

(٣) زقاق يتفرع من شارع أبو القاسم فيه مرقد الشيخ الدمستاني من علماء وشعراء القرن الثاني عشر. الهجري.

لقد كان كلام سلمان ولهجته معهما صارمة، حتى لا يتكرر الموقف ولا يكون مزحة لأصحاب الدكاكين والصنّاع الذين كانوا يحبون المزاح ويمارسونه يوميا مع بعضهم، وسلمان القروي ينظر إلى نفسه من خلال الجماعة وليس العكس فهو يخشى أن يمر بالشارع أحد من أبناء عمومته ويسمع عنه هذه الحكايا المعيبة. انتبه الرجلان إلى لهجة سلمان الجادة وقد بان على قسمات وجهه الغضب من تصرفهما فاعتذرا منه:

- الزبون: سلمان أنت أخونا ونحن نمزح معك وإذا كان هذا الأمر يضايقك فلن نعود إليه مرة أخرى.
- سلمان: نعم إنه يضايقني جدا وأنتم تعرفونني، أنا لا أتسامر ولا أمزح مع احدٍ منكم أنا هنا أبحث عن رزقي، مالي وهذه الأمور المعيبة؟
- الزبون الآخر: على رسلك يا سلمان لم نقل شيئا معيبا، نحن نعرفك (ابن عرب) ولا تقبل بذلك، ثم دعنا نقول لك: إن هؤلاء الأجانب لا يخجلون من إظهار الإعجاب بجمالهم، ألم تشاهدهم في الأفلام؟ كيف يتعرون على السواحل، كيف يقبلون النساء في الشوارع والأماكن العامة؟ ألم تشاهد كيف تلبس نساؤهم؟ يقال إنهم لا يغارون! وإن الذي يغار منهم يعدّونه متخلفا، هكذا نراهم في الأفلام. وهذه المرأة جميلة فعلا وشكلها مميز.

- فهز سلمان رأسه مستنكرا قوله: كلا لم اشاهدهم في الأفلام، ولا يوجد عندي تلفزيون، لست بحاجة إليه، أنا مهتم بعملي، بمزرعتي فقط.

فتشاغل عنهم ببضاعته ليخفي حنقه وغضبه الذي ظهر واضحا من احمرار وجهه وتعرقه.

- أحدهما: سلمان، سلمان بلا مزاح أنظر اليست جميلة؟ ألا تتمنى أن تكون لك زوجة مثلها؟

هنا لم يتمكن سلمان من كظم غيضه منهم فقرر أن يغير مكانه، لكنه تريث وفكر إنه لو غيره الآن ستكون عليه لازمة يثيرونها كل يوم، فقرر ان يتصبّر حتى ترجع إلى سيارتها وينظر ماذا يفعلون. وهكذا بقي حتى ظهر ذلك اليوم وهو يراقب طريق عودتها من دون ان يُشعر أحدا إنه بانتظار عودتها.

لقد اشتعلت الغيرة في صدر سلمان، لقد انتهك هذان الرجلان حرمة أحلامه، لقد أصبح معهم كمن بلع الموسى، إن أخرجه جرّح بلعومه وإن أبقاه آلمه: إن دافع عنها لا ينجو من ألسنتهم وهم يتحدثون عنها بهذا الشكل المخزي، وإن سكت عنهم هاجت نفسه تدافع عن حلمه الجميل في هذه الحياة الصعبة. لقد تحدثوا عن امرأة أُعجب بها أيما إعجاب،

امرأة تدخل قلبه البكر الذي لا يعرف من النسوان غير أمه، فهو يحتفظ بذكريات الحنان والعفة عن المرأة، لم يُنشّأ على الحديث عنها بهذه الصورة السافرة التي يتحدث بها زبائنه الذين أخذوا بضاعتهم وذهبوا وتركوه بحسرته وخيبة أمله، فقد كان كلامهم يخدش تلك الصورة الجميلة التي يحتفظ بها عنها. لماذا هم يتحدثون عنها بهذا الكلام؟ كيف عرفوا أنها متاحة للجميع؟ ألأنها تلبس البنطلون؟ لدينا نساء في المدينة يلبسنَّ البنطلون، ألأنها أجنبية؟ هل ألاجنبيات كلهنَّ غير شريفات؟ لا يبدو عليها إنها تحاول إغواء الرجال، فهي تذهب وتجئ ولا تحين منها التفاتة لأحد، حتى أنها غير متبرجة، فوجهها جميل بطبيعته، هكذا خُلقت بيضاء وردية ناعمة، ما العيب في ذلك؟ وما ذنبها؟ نعم سوف لن أبقى في هذا المكان، سأذهب وأقف هناك في آخر الشارع، وإن سألوني عن السبب أقول لهم إن الرزق يتطلب الحركة، فعلا الحركة قرب الجامع أفضل من هنا قرب سيارات التحميل والصباغين بمزاحهم وصياحهم الفج.

كان سلمان يحدث نفسه وينظر من طرف خفي عودتها، وإذا بها قادمة تتحدث مع المترجم متجهة إلى سيارتها وسلمان يترقب ويضحك في سره من الأسى:

- ما هذا اليوم! ماذا فعلت فيه حتى ألقى كل هذه الضربات الموجعة؟ قبل قليل كان الزبائن يتحدثون عنها بسوء، والآن هذا المترجم يمشي بجنبها ويتحدث معها، وأنا هنا بحسرتي آكل وأشرب، لابد أن أجد حلا، إن بقيت على هذا الحال ربما أُصاب بالجنون.

من بعد ذهبت المرأة خارج الشارع انتبه سلمان إلى زبائنه لم تصدر منهم أية إساءة أو مزحة فعرف أنهم فهموا ما أراد، وربما لن يتكرر ذلك منهم، فجمع حاجياته وركب دراجته عائدا إلى بستانه مهموما تعبا حتى أنه لم يغسل يديه ولم يأكل شيئا بل دخل الحجرة واستلقى على وجهه في نوم عميق، نوم المهموم الذي يريد خلاصا من هذا الذي يراه ولعل في النوم ملاذا.

عصر ذلك اليوم في شارع (أبو القاسم) قال أحد الزبونين لصاحبه عندما التقيا عند (أبي علي) بائع الشاي:

- لقد بقيت كلمات سلمان في ذاكرتي يبدو أنه تأثر كثيرا من كلامنا.
- نعم لقد لاحظت ذلك عليه.
- هل كان صادقا في كلامه إنه لم ينظر إليها؟
- لا أدرى ربما، ولكن ما الضير في ذلك فالشارع كله ينظر إليها.
- نعم صحيح إنها امرأة مميزة ومن الطبيعي إنها تثير الانتباه وربما الإعجاب.

- لا تنس إن تربيته ريفية وهو لا يستطيع أن ينسى تلك التربية أو يتنصل عنها، وأظن إنه استحيى من المزاح بصوت مرتفع.
- هل سمعته حينما قال إنه لا يملك التلفاز؟ كيف له أن يقضي ليله؟ كيف يتمكن من عدم سماع الأخبار وهذه الأحداث المروعة في العراق؟ كيف؟
- الذي أعرفه أن أهل الأرياف همهم أرضهم وأنهم ينامون مبكرين، ألم تر أنهم يتوافدون إلى الأسواق منذ الفجر يبيعون الزروع ويأخذون ما يحتاجونه من السوق ثم يغادرون؟
- نعم صحيح إنهم يتميزون بذلك.
- من الافضل لنا ألا ندخل معه بمشكلة ويأتينا بأعمامه ويتحول المزاح إلى فصل عشائري، ما دام هو لا يمازح ولا يقيم علاقات قوية معنا فلندعه لحاله، ثم لا تنسى انه هادئ ومؤدب معنا ولم يشتك منه أحد.
- نعم لم نسمع انه أساء التصرف معنا أو مع الناس.
- هل تعتقد اننا يجب ان نعتذر منه مرة أخرى؟
- لا داعي لذلك، سنتعامل معه بشكل طبيعي وكأن شيئا لم يكن ولا نمزح معه مرة اخرى.
- وهو كذلك اتفقنا.

نهض سلمان من نومته مجهدا يتمايل في مشيته قد جاسه البرد والجوع، فخرج إلى البستان وإذا بالليل قد اشتبكت نجومه والصمت والهدوء يلف المكان.

- يا ويلي كم نمت؟ كم الساعة الآن.

نظر إلى هاتفه (الصرصور) [٤] وإذا بالساعة تشير إلى الثانية من بعد منتصف الليل، فراح يوقد النار ثم دخل الحجرة يبحث عن شيء يأكله ويمني نفسه بكوب من الشاي يداوي به برد جوفه ثم جلس خارج الحجرة أمام النار ريثما تصير جمرا فيدخل بها إلى الحجرة. لقد تلفع بعباءة جده السوداء الشتائية التي كان للعثة نصيب فيها فقد خرقت ثقوبا فيها هنا وهناك.

كانت ليلة صافية والنجوم تتراقص حول القمر الذي يداعبها باختفائه تارة وظهوره تارة اخرى ليتخذ من سعف النخيل وأغصان الأشجار ملجأً لاختفائه، هذه السماء وهذه النار المشتعلة أمامه إنها أشياء لا تدري ما بنفسه، السماء والنجوم مشغولة بنفسها، والنار أمامه ترتفع ألسنتها وتخبو من دون إحساس بما يلقاه:

---

(٤) تسمية لتلفون نوكيا صغير الحجم ربما بسبب نغماته التي تشبه صوت الصرصور سمي بذلك.

- نعم كل شيء حولي يجري لحاله، إنها أشياء منتظمة، لها نظامها الذي لا تغيره، فلا النجوم تصير قمرا ولا القمر يصير نجما، وهذه النار لا ترتفع أكثر من مقدارها بل ما تلبث أن تصير جمرا لتنهي رحلتها رمادا، وأنا؟ هل فعلت مثلهم؟ لماذا لا نظام لي؟ الشباب الذين عشت معهم تزوجوا وصار لهم ابناء وبنات، وأنا؟ هل أبقى خارج النظام؟ الفقر؟ نعم، أنا فقير، ولكن حتى الفقر له نظام، الفقير لا يطلب أكثر من استطاعته، لا يمد عنقه إلى ما هو صعب المنال. لماذا أطلب ما ليس لي؟ يا الله تقتلني هذه الفكرة وهي تروح وتأتي إلى رأسي، لكن هل تذهب عنّي وارتاح؟ أم تختبئ في قلبي خوفا من طردها؟ نعم إنها تختبئ عندي ولما تراني هادئا تظهر مرة أخرى وتعيد صورتها إلى أحلامي إلى ايامي إلى أفكاري. ما أجملها! ما أجمل مشيتها! ما أجمل ثناياها وهي تمشي بالبنطلون كيف لي أن أقترب منها كيف لي أن أثير اهتمامها؟

غدا سآتي بشيء جديد، نعم شيء جديد وأعرضه أمامها، عسى أن تشتري مني، تشتري؟ أيها البخيل قل تأخذ مني ما تريد فكل أشيائي لها، نعم سأحسم الموقف.

اجتهد سلمان أن يحصل على (جمّارتين) [٥] في صبيحة تلك الليلة من أحد اقربائه في القرية. فقد أراد أن تكون بضاعته في هذا اليوم متميزة متنوعة، فأهل المدينة يحبون هذه الأطعمة غير المتداولة، حتى وإن تأخر عن موعده إلا أنه سيصل بأشياء جديدة. أخذ معه أيضا من الثمار البرتقال وبعض الخضروات، وضع في وسطها تلك الجمّارتين كشمعة وسط الزهور، وراح إلى الشارع على عادته أمام دكان (أبو علي) بائع الشاي، وحينما رفع الغطاء عنها كانت عيون زبائنه تترقبه.

- أبو علي: ها، سلمان؟ اليوم جئتنا بجمّار؟
- سلمان: نعم إنه طازج وطعمه حلو المذاق، هل أقطع لك؟
- أبو علي: نعم فأطفالي يحبونه، لكن لا تعطيني من الطرف الصلب، أعطني من الوسط.
- سلمان: كما تُحب أبا علي، ولو إنه هش كله.

بعدها تجمّع حوله زبائنه يشترون ويتذوقون وهم معجبون بهذه الفاكهة غير المعتادة عندهم. من بعد أن فرغ منهم وشرب الشاي من دكان أبو علي، عزم على أن ينفذ خطته فيأخذ دراجته إلى مكان آخر حتى يتجنب

---

(٥) الجمّار هو لب رأس النخلة من بعد تقشيره له مذاق حلو يكثر أيام زراعة الفسائل أو عند قطع النخلة.

المزاح والازعاج. فوصل إلى مكان قريب من جامع (أبو القاسم) [٦] قبالة (عكد اليهود) [٧] فهذا المكان يعدُّ مركز الشارع، حيث تتفرع منه ثلاثة ازقة يدخلها المارة ويخرجون منها، وهو مناسب لأن يرى بضاعته أكبر عدد ممكن من الناس. بعد أن باع بعضا منها لاحت له من بعيد المرأة الاجنبية:

- **سلمان (في نفسه): أهلا أهلا، ما أجمل الصباح حينما تشرقين فيه أنت يا فاتنة. (ثم تدارك نفسه معاتبا):**
- **سلمان تأدب، سلمان أعقل، سلمان يا أغبر[٨].**

كانت تتقدم نحوه شيئا فشيئا وكلما اقتربت منه زادته ارتباكا وارتعاشا وشوقا إليها، وكأنها ستقف وتتسامر معه، لكنه مع كل هذه الأشواق والأمنيات واللهفة كان لا يستطيع ان يبسط ناظريه عليها سوى لحظات بطرف عينه، فلما اقتربت منه وتجاوزته حانت منه نظرة إلى خدها المتورد:

---

(٦)جامع يقع في وسط الشارع يتضمن مرقد أبو القاسم جعفر بن الحسن بن يحيى بن سعيد الحلي (٦٠٢-٦٧٦هجرية) الملقب بالمحقق الأول والمحقق الحلي، من علماء الشيعة، في الفقه والأصول، في القرن السابع الهجري، وينصرف لقب المحقق له إذا ذَكرهُ الفقهاء بدون قرينة.

(٧) زقاق يتفرع من شارع أبو القاسم باتجاه السوق الكبير وسط مركز المدينة سكنه اليهود قبل تهجريهم إلى فلسطين.

(٨) كلمة نابية في اللهجة العراقية.

- يااااه، كم هي رقيقة لقد رأيت شرايين وجهها الدقيقة، ما هذه الرقة! أظن لو مر الغبار بها سيجرح وجهها. أوه يا سلمان انتبه لنفسك.

على بعد خطوات منها جاء المترجم خلفها وكان سلمان ينادي على بضاعته وقصد أن يكرر النداء عندما مر المترجم بجنبه فالتفت إلى سلمان بطرفه مبتسما وقال:

- شكرا ربما حينما أعود.

فرح سلمان بجواب المترجم الذي لم يثر انتباه أحد، فالمكان يتردد فيه كثير من المارة وكلهم يسمعون نداءه.

- سلمان مع نفسه: نعم حينما تعود، حينما تعود، لو مرت بي وقررت أن تشتري سأعطيها أحلى قطعة من الجمّار فهو يشبهها، لن آخذ منها فلسا واحدا، نعم بالمجاااان، فهي اليوم تملك الجمّار كما ملكت قلبي وعقلي، يا رب ما هذه الروح المرهفة التي تحملها، كأنها تمشي على الضباب، فهي لا تكاد تلمس الأرض بقدميها، إنها ملاك، لن اسمح لأحد ان يتحدث عنها بسوء.

بقي سلمان ينتظر رجوعها وهو يتشاغل بالبيع ومعاملة الناس وعيونه تتلصص على مداخل الشارع لعلها ترجع فيعطيها ما جاء به لأجلها، ولكن

حينما طال به الانتظار ويأس من عودتها، ظن أنها ربما تكون قد عادت من طريق آخر إلى عربتها، فلملم أشياءه ووضع الغطاء على ما ادَّخره لها من الجمّار متوجها إلى مكانه القديم قرب دكان الشاي، فاستغرب وهو يمشي ببطء لحركة المارة وهم يركضون يمينا وشمالا، وفيهم من تمدد على الأرض سابحا بدمائه، ساد الشارع الدخان والغبار وتطاير شظايا الزجاج والطابوق على جانبي الشارع، لقد كانت فوضى عارمة، اختلطت فيها الأشياء ببعضها الناس والحجارة والدماء وشظايا الزجاج والدخان والغبار لقد كانت الرؤية غير واضحة في تلك اللحظة:

- ما الذي يجري؟

لم يفهم سلمان ما حوله للوهلة الأولى فأفواه الناس تهمهم بشيء غير مفهوم ولم يعد يسمع سوى طنينا يصك مسامعه، فقد كان انشغاله بالمرأة حاجزا دون شعوره بما يجري حوله، ولم يصح من غفلته إلا على تلك الصورة المرعبة عندما ارتطمت عربته بالحجارة المنتشرة على الأرض، لقد كان انفجار السيارة المفخخة كفيلا أن يحدث هذه الفوضى. حينما نزل يرفع الحجر عن طريقه لاحظ سقوط ما بالعربة على الأرض فأخذ يجمعه سريعا، ولكن لاحت منه نظرة أمامه، فرأى المرأة ممددة على الارض والدماء تسيل من رأسها ويديها فصاح بلا شعور: يا ويلي أنت هنا يا

حبيبتي، ومن دون شعور بالموقف غطاها وحملها مع الجمّار ووضعها في عربة الدراجة وانطلق بأقصى سرعته فقد كانت سيارات الإسعاف والمطافيء والنجدة قد بدأت تتوارد على المكان وصخبها ونداءات رجال الشرطة تزيد المكان فوضى وارتباكا وهم يطلبون من الناس الخروج من الشارع خوف حدوث انفجار ثان كما هو معهود. فاتجه بدراجته نحو الطرق الآمنة التي يقل فيها الزحام حتى وصل إلى الشارع العام الرئيس متجها نحو باب المشهد [٩] وحينما وصل إلى تقاطع (ابن ادريس) [١٠] سار نحو شارع (الطهمازية) [١١] بأقصى سرعة، لقد كان رجال الشرطة ينتشرون في الشوارع يطلبون من الناس الذهاب إلى بيوتهم، أما شرطة المرور فقد كانت تفتش السيارات وتأمرهم بالرحيل. لم يكن سلمان يفكر بشيء في ذلك الحين سوى انقاذ تلك المرأة خليلة احلامه في اليقظة والنوم، حتى أنه لم ينتبه إلى جراحاته في رأسه ووجهه إلا عندما أحس بجفاف الدماء التي كانت تسيل على وجهه ولحيته. تحسسها بيده فلم تُثن عزيمته عن مواصلة السير الحثيث وهو منطلق بأقصى سرعته، ظل

(٩) باب المشهد: هو الباب الجنوبي في الحلة قديما باتجاه المشهد الغروي في النجف الاشرف، ذهب الباب وبقيت التسمية.

(١٠) تقاطع شوارع يقع على ناصيتها جامع فيه مرقد العلّامة محمد بن منصور بن أحمد بن أدريس العجلي الحلي المعروف بابن إدريس ،و عند الفقهاء بـصاحب السرائر.٥٤٣ ـ ٥٩٨ هـ

(١١) الطهمازية: قرية زراعية تقع في الجنوب الغربي لمدينة الحلة سميت نسبة إلى نهر الطهمازية الذي أمر بحفره السلطان طهماسب شاه الصفوي (٩١٩ ـ ٩٨٤ هـ).

ماشيا تقوده أفكاره على غير هدى فقد كانت صورتها في مخيلته وهي تتهاوى على الأرض وترتطم بها لا تفارق عيونه. كانت تبدر منه بين الفينة والأخرى التفاتة إلى عربة (الستوتة) فيلمحها مازالت ساكنة تحت غطاء الخضروات.

- سلمان هل حصل انفجار في الحلة؟

انتبه سلمان إلى أحد رجال القرية يسأله فأجابه وهو لايزال على سرعته:

- نعم، مفخخة في شارع (أبو القاسم) ويقولون هنالك سيارة أخرى لم تنفجر بعد (أفاق سلمان من دهشته وعادت اليه نفسه):
- يا لله كيف وصلت إلى هنا؟ لماذا فعلت ذلك؟

أبطأ من سرعته وفكر بالعودة إلى مكان الانفجار، لكنه تخلى عن تلك الفكرة سريعا عندما وصل إلى مدخل بستانه، فتوقف أمام الباب وهو يرتجف ينظر إلى المرأة ثم من حوله خوفا من عين ترقبه وعلى الفور أدخل (الستوتة) أمام الحجرة وحمل المرأة بغطائها إلى الداخل ووضعها على البساط قرب الموقد وتسمّر في مكانه محدثا نفسه:

- ماذا فعلت؟ كيف فعلت ذلك؟ أنا في ورطة كبيرة؟ ماذا لو جاء أهل القرية للاطمئنان وقد شاهدوا وجهي ويدي ملطخة بالدماء؟

استدار ناحية الباب يغلقها خلفه وأبعد الدراجة خارج البستان ثم اتجه نحو (الحنفية) ليغسل يديه ووجهه.

سلمان كيف حالك هل اصابك مكروه؟ (سمع صوت جاره قادما نحوه يهرول).

- سلمان: الحمد لله أمر بسيط اصابتني شظايا احجار.
- تعني لا يوجد خطر؟ انت بخير؟
- سلمان: نعم أنا بخير لا تشغل بالك، سأغسل ملابسي ودراجتي وأبقى في البيت للراحة.
- نعم هذا أفضل، سنأتي لزيارتك في المساء.
- سلمان: لا تتعب نفسك يا عم، أنا بخير، قل للجيران سأخرج اليكم في المساء والتقيكم في المضيف.

عاد جاره حامدا لله على السلامة متمتما بكلمات تعبر عن سخطه مما يلقونه من هذه الانفجارات التي صارت معتادة في ذلك الوقت. عاد سلمان إلى الحجرة وأغلق الباب خلفه بإحكام ونظر إلى المرأة المغطاة فأخذته رعدة وحيرة مما أوقع نفسه فيه.

- يا الله ماذا فعلت؟ كيف اتصرف؟ ماذا لو كانت ميتة؟

هلع من هذه الفكرة، أن تكون ميتة فأندفع من فوره اليها، كشف الغطاء عنها بيديه المرتجفتين: كم كنت اتمنى أن أراك وأتكلم معك وأنت بذلك الألق الأخّاذ. كان يخشى أن يمسها وهو الذي لم يكن يُحسن التعامل مع النساء ولم تكن له تجربة معهن بل لم يلمس امرأة او تلمسه أمرأه منذ أن ماتت أمه، قرّب اصابعه من انفها ثم اذنه فوق صدرها دون ان يمسها:

- الحمد لله انها تتنفس، يا الله لونها أصفر، ماذا أفعل كيف أداوي جراحها، ملابسها التي جف عليها الدم؟ كيف، كيف؟ ايتها الجميلة، يا جميلتي أنت جميلة في كل حالاتك وا أسفاه لما حصل لك.

فكر أن يذهب إلى مستوصف القرية ويخبرهم عن الحالة أو يعود بها إلى المستشفى ويخبر الشرطة، وهو في خضم هذه الأفكار والحيرة والتردد صار في ذهنه ان يذهب إلى مضمد القرية ويسأله من دون أن يخبره بالحقيقة، ارتاح لهذه الفكرة ولاسيما إنه قد وعد جاره بزيارة المضيف.

- نعم سأذهب عصرا إلى المضمد وأسأله.

نهض سلمان وجاء بأناء فيه ماء وقطعة قماش وبدأ يمسح الدم الجامد على وجهها وشعرها وكفيها، انتبه إلى سوار في معصمها في وسطه مربع اسود يشبه الموبايل الصغير لكنه كان مهشما قد جمد عليه الدم والتراب فنزعه من يدها، وحينما وقعت عيناه على ملابسها الملوثة بالدم زادت

حيرته وارتعاشه: كيف لي ان أفعلها؟ لا، لا، لا أقدر على ذلك كيف لي ان أكشفها لا أستطيع سأتركها بملابسها على حالها واهتم بجروحها في الوقت الحاضر.

بقي سلمان في الحجرة يراقب تنفسها ولعلها تصحو.

- يا الله إذا صحت كيف سأعرف كلامها؟ كيف ستفهمني وأفهمها؟ آخ سلمان يا أغبر لماذا فعلت ذلك؟ لماذا؟ جئت بها إلى البيت؟ ماذا سأقول للناس؟ آه ماذا لو بحث عنها الجيش والشرطة ماذا لو كان أحدهم قد رآني وأنا أحملها على (الستوتة)؟ يا رب يا الله أنقذني.

بقي سلمان مع هذه الأفكار تعتصره وتضغطه وكأن أوصاله تتقطع من شدة الخوف والارتباك والحيرة، بقي كذلك حتى عصر ذلك اليوم. فتذكر مضمد القرية، فقام وأغلق الباب بإحكام متوجها إلى مضيف القرية لعله يجد الموظف الصحي، دخل المضيف والقى السلام ولم يكن فيه سوى بضعة رجال من كبار السن، فقد كان المعتاد أن يجتمع الناس ليلا في المضيف يشربون الشاي والقهوة ويتحدثون عن الأوضاع والأخبار والزرع والحيوان.

- وعليكم السلام حمدا لله على سلامتك سلمان، أخبرنا بالذي حصل، هل ما زلت متألما من جراحك؟ هل نزفت كثيرا؟ فوجهك يبدو شاحبا.

- سلمان: الحمد لله أنا بخير وجروحي بسيطة، سأذهب إلى (أبي علي) المضمد. (وهو يهم بالخروج وإذا (بابي على) المضمد يدخل المضيف فالتقيا في الباب فبادره قائلا):

- المضمد: حمد لله على سلامتك سلمان، ما هذا الذي سمعته هل حقا كنت في منطقة الانفجار لقد امتلأت المستشفى بالجرحى و.
- سلمان (مقاطعا) الحمد لله أنا بخير فقط هذه الجروح في رأسي ووجهي إذا تلاحظها؟

أخذ المضمد يتفحص جروح سلمان ثم قال له: إنها جروح بسيطة فقط تحتاج إلى تنظيف وتعقيم وتأخذ بعض الدواء لمنع الالتهاب، هلمّ معي إلى البيت سأعطيك الدواء وأنظف جراحك.

كان المضمد قد فتح دكانا صغيرا من بيته يعالج الحالات الطارئة والمستعجلة التي يحتاجها أفراد القرية ويقدر هو على انجازها. وصلا إلى الدكان فجلس سلمان على الكرسي المعدّ لمثل هذه الحالات وبدأ المضمد يتفحص جروحه وينظفها بالقطن والشاش والمطهر وسلمان منتبه إلى عمله عسى أن يتمكن من تطبيب المرأة في بيته، بعد ان أكمل

المضمد عمله أعطى لسلمان مطهرا وقطنا ومرهما للجروح وحبوبا لمنع الالتهاب قائلا له:

- هل تقدر أن تفعلها بنفسك؟
- سلمان نعم، نعم أقدر، لقد شاهدتك كيف تعمل.
- المضمد: سلمان إذا وجدت أنك لا تتمكن من ذلك عد اليّ.
- سلمان: أطمئن، هذا الدواء يستعمل للجروح جميعها؟
- المضمد: نعم أحتفظ بالباقي قد تحتاجه مستقبلا.
- سلمان: وإذا احتاجه أحد؟
- المضمد: وهل لديك أحد آخر مصاب؟ أنا أعرف أنك وحيد في بيتك؟
- سلمان: لا، لا لا يوجد أحد إنما أسأل للعلم فقط، لقد رأيت جرحى أُغمي عليهم ترى ما سبب الإغماء وهل هم ميتون؟
- المضمد: إن لم يكونوا ميتين فربما بسبب الصدمة أو ارتطامهم بشيء صلب، الأرض او الجدران.
- سلمان: وهل يستعيدون وعيهم. أم لابد من الطبيب؟
- المضمد: بحسب حالة المريض منهم من يصحو بعد ساعة أو أقل ومنهم من يأخذ بعض الوقت حتى يستعيد وعيه وتتحسن صحته وربما يحتاج إلى البقاء في المشفى لعدة أيام.

أرتبك سلمان بعد سماعه كلام المضمد وبدت عليه الرعشة والتعرق وشحوب الوجه، ثم أردف قائلا:

- ترى هل يستطيع أهلوهم من علاجهم في البيت؟
- المضمد: سلمان ما بك تسأل كثيرا عن الإغماء؟ هل تعرف أحد أغمي عليه جراء الانفجار؟
- سلمان: ها؟ لا، نعم نعم لي زبون عنده محل للنجارة يشتري منّي دائما وقد قلقت عليه حينما رأيته مددا على الأرض.
- المضمد: وهل نقلته سيارة الاسعاف؟
- سلمان: لا أدري، فقد كان الوضع مربكا جدا، وقد أخذت دراجتي وهربت خوفا من انفجار آخر.
- المضمد: حسنا فعلت، لا تشغل بالك سيتكفل به أهله.
- سلمان: نعم نعم شكرا أبو علي كم الأجرة؟
- المضمد: توكل على الله لا استوفي منك أجرة.

شكره سلمان مرة أخرى وخرج مسرعا إلى بيته وهو يفكر بالورطة التي أوقع نفسه فيها محدثا نفسه: إذا بقيت مغمى عليها سأنقلها ليلا إلى المستشفى في المركز، أضعها أمام الباب وأهرب. لا ليس من المرؤة أن أفعل ذلك، سأُخبر أبا علي المضمد وأحكي له القصة لعله يساعدني،

ولكن ماذا لو أخبر أحداً بذلك؟ يا الله أعنّي ساعدني خلصني من هذه المصيبة أرجوك.

وصل إلى بيته فتح باب الحجرة فوجد المرأة على حالها قرب الموقد ممددة أقترب منها قليلا فشاهد قطرات التعرق على جبينها وقد تورد وجهها بفعل الحرارة، قرب أذنه منها: نعم الحمد لله إنها تتنفس، فاخرج الدواء من الكيس وبدا يضمد جراحها كما فعل المضمد. نظف الجروح وأخرج منها شظايا الزجاج العالق بها، فارتعدت فرائصه ورجع إلى الخلف خائفا مرعوبا حينما بدت منها حركة بسيطة من رأسها وأنين خافت، نظر اليها بعيون جاحظة وتمعن فوجدها قد عادت إلى نومها، ثم أعاد الغطاء عليها، لكنه تذكر المرهم والدواء، فتمالك نفسه وعاد إليها يضعه على جروحها ويعيد عليها الضماد ثم فكر كيف ستتمكن من بلع حبة الدواء فقفزت إلى ذهنه ذكرياته كيف كانت أمه تفعل معه، فقام واحضر ملعقة سحق فيها حبة الدواء ووضع عليها قليلا من الماء واقترب من المرأة ورفع رأسها وسقاها بصعوبة وفرح حينما استجابت لذلك وهي على حالها أعاد عليها الغطاء وخرج مسرعا إلى المضمد.

- سلمان: (أبو علي) الحمد لله وجدتك، في بعض الأحيان أُحس بحرارة في جسدي واتعرق ويحمّر وجهي فماذا افعل؟

- المضمد: نعم سلمان نسيت أن اعطيك خافض الحرارة فبعض الجروح قد تسبب ذلك، لكن من المهم جدا أن تبقى نظيفة ولا تتلوث حتى لا تصاب بالالتهاب، خذ هذا الشراب وهذه الحبوب ولو كان عندي أمبولة لكان مفعولها أسرع ولكن خذ هذه وغدا آتيك بالأمبول، ويمكنك أن تضع على جبهتك ويديك قطعة قماش مبللة بالماء.
- سلمان: شكرا لك (أبو علي)، غدا سأذهب إلى المركز وأشتري الدواء المناسب وربما أذهب إلى الطبيب.

عاد سلمان مسرعا إلى البيت وبدأ يسقي المرأة الدواء بالملعقة، ثم خرج ليشعل النار في المنقلة ثم يدخلها إلى الموقد بعد أن تصير جمرا. عندما دخل الحجرة نظر إلى ملابس المرأة المتسخة بالدم والتراب فتحير وأزداد همه ووجعه كيف سيتمكن من تبديلها؟ هل ينتظرها حتى تفيق؟ ولكن من اين له بالملابس وهو الأعزب؟ يا الله ساعدني، أشتري لها ملابس جديدة، ههه كيف لي أن أعرف ذلك ماذا سأقول للبائع؟ أعرض عن الفكرة وغطى المرأة بالبطانية من بعد ان مسح وجهها ويديها بقطعة القماش المبللة بالماء وهي تئن انينا ضعيفا وتدير راسها بخفة يمين وشمالا وتتأوه بكلمات لا يفهما.

وهكذا قضى الليل لائما معاتبا نفسه لائذ بزاوية الحجرة ملتفعا بغطاء له يتأملها على ضوء الموقد الذي بدأت جمراته تخبو ثم غط في نوم عميق فلقد كان يومه مليئا بالأحداث مربكا متعبا.

في صبيحة اليوم الثاني نهض على عادته ليحلب عنزته ويقطف ما يجده من خضروات في مزرعته ويذكي الموقد بجمرات جديدة ويضع إناء الحليب قربه ثم تفحّص المرأة وقد بدأت حرارتها تنخفض شيئا قليلا وتتحرك في نومها محاولة رفع رأسها لتنظر ما حولها لكنها ما تلبث أن تعود إلى النوم، فأخذ الملعقة وسقاها الحليب ثم الدواء وطهر جروحها ومسحها بالمرهم وضمدها كما فعل أول مرة. وأعاد عليها الغطاء ووضع ثوب أمه قربها وخرج كي يعرف الأخبار ويسترزق ولعله يجد حلا للورطة التي أقحم نفسه فيها.

حينما وصل إلى بداية الطريق متوجها إلى مركز المدينة لاح له في الافق طائرتا هليوكبتر تجوبان الأجواء وشاهد دوريات الجنود الاجانب والشرطة منتشرة في الشوارع تفتش السيارات ومعهم كلابهم البوليسية، اقترب منهم فأوقفوه ثم فتشوا عربة الدراجة وهو ساهم لا يدري ماذا يفعل ثم أشاروا إليه بمواصلة السير فانطلق مبتعدا عنهم متوجها إلى شارع (أبي القاسم) حامدا ربه إنه غسل العربة جيدا.

عندما وصل إلى الشارع شاهد اصحاب الدكاكين وهم ينظفون ويصلحون ما يمكن اصلاحه، فتألم كثيرا للخراب الذي حصل فيه فآثار الحريق والهدم والدماء مازالت هنا وهناك، فركن دراجته أمام باب المتنزّه قاصدا دخول الشارع ماشيا، فبادر إليه رجال النجدة يطلبون منه عدم ترك الدراجة هنا، فركنها قريبا من مرقد (أبي الفضائل) [١٢] أمام أحد الدكاكين مستأذنا من البائع ريثما يعود قريبا فقال له:

- لا تتأخر فالشرطة تأتي في كل حين تسأل عن السيارات والعربات الغريبة خوفا من انفجار آخر.
- سلمان: اطمئن لن أتأخر، فقط أسأل عن حال أصدقائي في الشارع وأعود، فلقد كنت في وسط الشارع حينما حصل الانفجار، أنا بائع الخضروات إن كنت تعرفني.
- آه نعم حمداً لله على سلامتك تفضل ولا تتأخر.

دخل إلى الشارع من الزقاق المؤدي إلى مرقد الشيخ الدمستاني ، عندما وصل إلى نهاية الزقاق اقترب من بعض زبائنه يسألهم ويسألونه عن الحال

---

(١٢) هو السيد أبو الفضائل أحمد بن موسى بن جعفر بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد الطاووس العلوي الحسني، فقيه أهل البيت (عليهم السلام)، مصنف مجتهد كان أورع فضلاء زمانه، وكان شاعراً مصقعاً بليغاً مجيداً، لم ينقل لنا المؤرخون عام ولادتهِ، وقيل توفي بالحلة سنة ٦٧٣ هـ.

فتأثر لما أصابهم من جراح وحرق وترحم على الذين فارقوا الحياة، فشاهده من بعيد (أبو علي) بائع الشاي فصاح ملوحا:

- سلمان أين أنت؟ ماهي اخبارك لقد رأيتك تهرب بدراجتك وسط الغبار والدخان فقلقت عليك لئلا يصيبك حريق السيارة.
- سلمان: (وهو ذاهب اليه مفكرا في كلامه: رآني وأنا أهرب من الشارع يا الله استر عليَّ) حمدا لله على سلامتك (أبو علي) لا تهتم الزجاج والأواني يمكن تعويضها المهم سلامتك.
- أبو علي: نعم يمكن تعويضها، الحمد لله مجرد جروح بسيطة، لكن جارنا (أبا عقيل) مات، وأخوه مازال في المشفى من أثر الحروق.
- سلمان: لا، انه خبر محزن جدا (أبو عقيل) رجل طيب رحمه الله. ثم أردف قائلا: (أبو علي) كيف رأيتني البارحة فأنا لم أتمكن من مشاهدة أحد أو التعرف على أحد بسبب الغبار والدخان؟
- أبو علي: نعم، لقد تفقدت جارنا (أبا محمد النجار) فقد كان قريبا من الانفجار فسمعت صوت دراجتك تتعثر بالأحجار فرأيتك تجمع بضاعتك من على الارض وبعدها انشغلت مع (أبي محمد) ولم أُشاهدك مرة أخرى، فهل اصيبت دراجتك بأضرار؟
- سلمان: لا (أبو علي) لقد تعثرت بالأحجار فقد كنت منطلقا بسرعة فطاحت البضاعة على الأرض ونزلت أجمعها.

- أبو علي: هاا.. يا سلمان في مثل ذلك الموقف وأنت تفكر بالبضاعة؟
- سلمان: مثلما أنتم تعتنون بمحلاتكم وتصلحونها أنا كذلك، صحيح؟
- أبو علي: نعم لك الحق في ذلك، فبضاعتك رأس مالك، انظر لقد نشروا خبر الانفجار في جريدة الفيحاء (قدم له الجريدة مشيرا إلى صورة).
- سلمان: آه نعم هذا هو الشارع، والصور الأخرى فيها تفاصيل أكثر، (أبو علي) أعطني هذه الجريدة فكبار القرية الذين لا يتمكنون من القدوم إلى هنا يسألونني بكثرة عن الأضرار.
- أبو علي: نعم خذها فلا حاجة لي بها بعد أن إطلعت عليها.
- سلمان: شكرا لك (أبو علي) وحمدا لله على سلامتكم، لقد تركت دراجتي قرب مسجد (أبي الفضائل) سأذهب لئلا تأتي الشرطة وتسحبها، في أمان الله.
- أبو علي: الله معاك، نراك بخير.

عاد سلمان إلى دراجته والخوف والقلق يركبه فإن كان (أبي علي) قد رآه فمن الممكن أن يكون آخرون قد رأوه، (محدثا نفسه): سأتبين حقيقة ذلك لاحقا، المهم في هذا اليوم لا شائبة عليّ، وهذه الجريدة سأضعها في صندوق الدراجة وأعطيها لها.

ثم راح إلى مناطق اخرى أكثر أمنا ينادي على بضاعته، وظل يتجول بها ما بين الدور السكنية القريبة من الشارع، وعندما استكمل بيعها ركنها جانبا ودخل السوق الكبير ليشتري بعض الملابس على خوف ووجل واستحياء، فكان يهمس في أذن الباعة ويسألهم عن المناسب منها وحينما يسألونه عن القياس والحجم كان ينظر الى النساء في السوق ويشير الى إحداهن قائلا: بهذا الحجم، والبائع يضحك في سره فقد عرف أنها المرة الأولى له يتبضع ملابس نسائية.

أخذ ما تمكن من شرائه وعاد إلى دراجته منطلقا إلى مزرعته، حائراً متفكرا كيف سيتخلص من ورطته هذه، في طريق عودته دخل إلى الصيدلية ووصف الحالة إلى الصيدلي مدعيا أن أخته قد طاحت من مرتفع على الأرض فأصابتها بعض الجراح وأُغمي عليها، فأعطاه الدواء المناسب. حينما وصل إلى البيت أسرع إلى الحجرة ينظر ما أستجد من أمر المرأة فوجدها تحرك رأسها يمينا وشمالا، أقترب منها فرآها تحاول فتح عينيها لكنها ما تلبث أن تعود إلى نومها وقد بدأت تحرك يديها ورجليها كأنها حركات لا إرادية ضعيفة فخرج مسرعا وجاء بالملابس التي اشتراها من السوق وظل واقفا قبالتها حائرا كيف سيغير لها ملابسها المتسخة التي بدت تظهر منها رائحة غير مقبولة فلمعت في رأسه فكرة خرج على إثرها من الحجرة وعاد بقفازين كان يلبسهما عند قطف الباميا الناضجة فلبسهما

وأنزل يشماغه المعلق على مسمار في الحائط شدّ به عيونه بإحكام واقترب منها محاولا إجلاسها لتبديل ثيابها من تحت الغطاء، فسحبها من يديها فاستجابت وهي لا تقوى على الحراك، فكانت طوع يديه لكنه شعر أنها لا تتمكن من رفع راسها فكانت رقبتها تتمايل، ويسمع من فمها آهات وأصوات خافتة كأنها تريد أن تتقيأ فأعادها الى وسادتها خوفا من أن تختنق بين يديه وتزداد ورطته تعقيدا، مد يده بقفازيه الى قميصها ورفعه على حذر وخوف وارتعاش ونزعه من راسها ، ثم تحسس الدشداشة التي جاء بها من السوق وبدا يدخلها في راسها ثم يديها وقد أخذ منه التعرق مأخذا عظيما حتى أن بعض قطراته كانت تسّاقط عليها ، ثم قلبها على جنبيها وانزل الثوب الى وسطها ثم بدأ بسحب بنطالها من بعد أن اصلح الغطاء وبالسرعة التي يقدر عليها وألبسها سروالا طويلا ثم طفق الى راسها يلفه بشال كما كانت تفعل النساء في قريته، عندما أكمل عمله وفك عصابة عينيه لاحظ أنها كانت تحاول فتح عينيها مجددا. لقد كانت الاشياء حولها ضبابية وكأنها تنظر من خلال أنبوب رفيع ولم تتمكن في تلك الحالة من التعرف عمّا حولها، فكل الاشياء كانت متداخلة مع بعضها يلفها ضباب كثيف، والطنين يرتفع صوته في رأسها كلّما حاولت رفعه أو الالتفات لتنظر ما حولها، ولم تكن تقدر أن تُصدر صوتا مسموعا، سوى همهمة بكلمات غير مفهومة.

تركها سلمان على هذه الحالة وراح يشتري حليب الجاموس من جيرانه، فقد كان يسمع أثناء انصاته إلى كلام رجال القرية في المضيف أن حليب الجاموس الطازج يساعد على الشفاء ويقوي الجسم، فأخبر جاره بحاجته إلى الحليب ليساعده على شفاء جروحه سريعا، فحصل على مراده ورجع إلى البيت يبحث في عش الدجاج عن بيض وعندما حصل عليه دخل به إلى الحجرة ووضعه على حافة الموقد مع إناء الحليب، وراح يغسل يديه ووجهه من هذا العمل الشاق المتعب الذي جلبه إلى نفسه. ثم عاد وأجلس المرأة لابسا قفازيه واخذ يسقيها الحليب الطازج الدافئ وكم كان فرحه وخوفه عظيمين عندما وجدها تحاول شرب الحليب فأخذت منه رشفات تبلعها بصعوبة وتعاود مرة أُخرى حتى اكتفت منه، ثم اخذ البيضة وفتح في قشرها بمقدار دخول الملعقة الصغيرة مرددا في نفسه: رحمك الله يا أمي أتعلم منك حتى وانت غائبة عني، ثم أخذ يطعمها خليط البيض المملح وهي تتناوله عندما يقربه من فمها، وعيناها مغمضتان لا تقوى على فتحهما كما ينبغي وبدأت تتلفظ بصوت ضعيف كلمات متقطعة لم يكن سلمان يهتم بها أو يحاول فهمها لأنه لا يعرف سوى لهجته القروية فلم يُتعب نفسه وهو آيس من فهمها.

بعدها أعادها إلى وسادتها وجلس بعيداً عنها يتناول ما بقي من الحليب والخبز الذي كان عنده. ثم خرج يتفقد مزرعته وإذا به يتفاجأ بدخول المضمد إلى بستانه مناديا عليه:

- المضمد: السلام عليكم سلمان (وهو يقترب منه).
- سلمان: وعليكم السلام (أبو علي) أهلا بك (وقد ظهر عليه الارتباك).
- المضمد: كيف حالك؟ جئت للاطمئنان عليك، أراك لاتزال متعبا ووجهك شاحب، ما هذا التعرق والارتعاش؟
- سلمان: الحمد لله أنا بخير، في بعض الأحيان ترتفع عندي الحرارة لكني بخير وأنا آخذ الدواء، تفضل، تفضل هل ندخل إلى الحجرة؟
- المضمد: أنت مشغول ولا أريد أن أعطل عملك، أريد أن ارى جراحك كيف صارت؟
- سلمان: في الحجرة؟
- المضمد: لا هنا في الشمس أفضل. (ثم أخذ يتفحص جراحه ويطمئنه انه يتماثل للشفاء، ثم أخرج له من جيبه بعض الحبوب) قائلا:
- سلمان هذه الحبات تأخذها بعد الاكل ثلاث مرات في اليوم، وهذه تأخذها صباحا مرة واحدة فيها مجموعة فيتامينات حتى تستعيد صحتك ووجهك يستعيد لونه.

أخذ سلمان الدواء منه شاكرا، لكنه كان مشغول البال مفكراً بالمرأة النائمة في الحجرة لئلا تحاول الخروج أو تصدر صوتا فيسمعها، ولم تهدأ نفسه إلا حينما توجه المضمد إلى باب البستان يهم بالخروج وخلفه سلمان يودعه كما هي العادة الجارية داعيا له بالتوفيق.

خرج المضمد من بستان سلمان وهو يفكر بالحالة التي وصل اليها فقد شاهد شحوب وجهه وارتفاع حرارته وارتعاشه فعزم على تقديم المساعدة له:

- نعم فهو فقير ويبدو أن الحادثة قد أثرت عليه، ربما لم يتمكن من تأمين رزقه كما ينبغي هذه الأيام، سأذهب إلى المضيف وأُخبر الجماعة عن حاله.

وصل إلى المضيف فوجد جمعا من رجال القرية يهمون بالعودة إلى بيوتهم فالمغرب قد اقترب وقته فسلم عليهم وقال لهم:

- يا جماعة، سلمان بحاجة إلى المساعدة، أنتم تعرفون أنه وحيد وفقير وهذا الانفجار قد أثر عليه وعلى عمله، لقد جئت الآن من عنده ورأيت كيف تأثرت صحته بذلك، لذا اقترح عليكم أن نجمع له بعض المال للمساعدة فما قولكم؟

- فأجابه كبيرهم (الحاج محسن): نعم معك حق، كان علينا أن نفعل ذلك منذ اليوم الأول للحادث حتى أننا لم نذهب إلى بيته لعيادته، اجتمعوا هنا بعد العشاء لنحمل له ما نتمكن منه.

أما المرأة فقد فتحت عيونها وهي تحاول أن تجلس من رقدتها، لكن الدوار أخذ منها كل مأخذ فوقعت على جنبها، في هذه الاثناء دخل سلمان الحجرة حاملا ابريق الشاي فتفاجأ من وضعها وعرف أنها كانت تحاول الجلوس فوضع الابريق قرب الموقد وتقرب منها ليعيدها إلى الوسادة فتمسكت بذراعه في محاولة منها للجلوس فأعانها سلمان وأجلسها واضعا الوسادة خلفها لكنها لم تستطع أن تصمد طويلا فقد كان رأسها يتمايل وهي لا تقوى على رفعه وأخذها سعال خفيف ثم ما لبثت تتقيأ على ملابسها وملابس سلمان فاشمأزت نفسه من هذه الحالة، فأعادها إلى نومها وذهب ليأتي بالماء والمنشفة ونفسه تكاد تفلت من عقالها وقد امتلأ المكان برائحة كريهة، مسح فمها ووجهها ويدها بالماء ثم غسل ما علق بثوبة وعاد إليها ينظر إلى ثوبها متسائلا: ما هذا ؟ هل أبدل ملابسها مرة أخرى؟ من أين آتيها بثوب آخر ؟ فتذكر ثوب أمه ووشاحها في الدولاب القديم، ففتحه واخرجهما منه قائلا في نفسه : نعم ربما يكون مقاسه ملائما لها (ثم وضعه عليها)نعم هو مناسب حتى وإن كان أكبر قليلا المهم أن يكون نظيفا ساترا. فقام يلبس قفازيه ويشد عيونه

بالشماغ وهي تجول بنظراتها في محاولة منها لفهم ما يجري حولها، لقد بدأت رؤيتها تتضح شيئا قليلا ورأت ذلك اليشماغ على وجهه فداخلها خوف شديد محاولة إبعاده عنها بيديها إلا أنها لم تقو على ذلك، فسحب من تحتها الفرش المتسخ وأبقاها على الحصير ثم أعاد عليها غطاءا آخر وطفق يغير ثوبها كما فعل في المرة الأولى ويلبسها ثوب أمه ويلفَّ رأسها بالوشاح. ثم فك عصابة عينيه ليجمع ملابسها المتسخة والفراش في كيس وهي تنظر اليه وجلة، عندما أحست انه لا يؤذيها استقرت قليلا.

خرج سلمان ليضع الفراش والملابس المتسخة تحت الحنفية ثم أوقد ناراً وراح يقلبها لتنضج جمراتها وإذا بصوت يناديه:

- سلمان، سلمان.

التفت ناحية الصوت وإذا بجمع من رجال القرية قرب مدخل البستان يتقدمهم (الحاج محسن) كبير القرية، فبقي ساهما لا يدري ماذا يفعل: يا ربي ماذا أفعل مع هؤلاء، سوف أُفتضح، سوف أُفتضح (وهو يهرول لاستقبالهم):

- أهلا وسهلا، أهلا وسهلا، تفضلوا، تفضلوا مرحبا بكم. (صافح الحاج محسن وقبّل يده ثم سلم على بقية الرجال وذهب أمامهم ليهيئ الحجرة لدخولهم، فناداه الحاج محسن):

- سلمان ضع لنا فراشا هنا حول هذه النار، دعنا نشم الهواء لقد مللنا من الحجرات.

أبتسم سلمان فرحا وقال في سره (رحم الله والديك حاج محسن) فدخل الغرفة ليجلب الحصير ثم القى بنظرة خاطفة على المرأة فوجدها تنظر اليه مستغربة وخائفة فقد كانت تسمع حوارهما، فأشار اليها أن اسكتي وابقي في مكانك، فاستجابتْ ذاعنة وسحبت الغطاء على وجهها. فخرج سلمان مسرعا إلى ضيوفه، أجلسهم وجلب لهم الوسائد ثم وضع أبريق الشاي على النار وجاء بالكؤوس والسكر، وضيوفه قد تحلقوا حول النار يتجاذبون الحديث ويستمتعون بدفئها في ليلة آذار المنعشة، ثم ناداه الحاج محسن:

- تعال أجلس يا سلمان ولا تنشغل بالشاي فهو أمامنا، حدثنا عن أحوالك من بعد هذا الانفجار، هل تعمل؟ هل يكفيك زرعك (ثم التفتوا إلى البستان بنظراتهم) هل تمكنت من البيع هذه الأيام؟
- سلمان: الحمد لله يا عم، يكفيني ما أحصل عليه منها وأنتم تعلمون من بعد فراق أمي وجدّي أصبحت وحيداً أكتفي بالذي أحصل عليه من بيع الخضروات.

- **الحاج محسن: أنا عمك وهؤلاء أبناء عمومتك وقد تفضل الله علينا فجئناك بشيء من فضله ولنطمئن عليك أيضا (ثم دس في جيبه أوراقا نقدية).**
- **سلمان: (وهو يتمنّع عن قبولها) أنا لست بحاجة إلى المال يا عم، عندي من فضل الله ما يكفيني وأكثر.**
- **الحاج محسن: سلمان عيب عليك أن ترد يدي، جئناك بجمعنا فلا تكسر بخواطرنا، هذه الامور جارية بيننا وأنت لست بغريب عنّا خذها ولا تخجل من أعمامك يا ولد.**
- **رجل آخر: عمتك (أم حسين) طبخت لك هذه الدجاجة متمنية لك الشفاء العاجل وتقول انها تُحبك مثل ولدها (حسين).**
- **وقال آخر: خالتك (أم جواد) بعثت اليك بهذا الخبز الطازج لقد عملته خصيصا لك.**

ثم قدم له رجل آخر صحنا من القيمر وآخر قدم الحليب والزبد، فلم يستطع أن يردهم، فشكرهم متمنيا أن يتمكن من خدمتهم مستقبلا. ثم قام ليُدخل الهدايا إلى الحجرة ويطمئن على المرأة فوضعها بقربها وأكد عليها الصمت والسكون وهي مستسلمة لأمره تنظر إلى الأطعمة التي فاحت رائحتها الزكية في أرجاء الحجرة.

عندما دخل الحجرة قال الحاج محسن:

- ألا ترون حالة سلمان؟ يبدو مرتبكا ووجهه شاحب ويداه ترتعشان؟
- المضمد: هذه الحالة بسبب صدمة الانفجار المفاجئ، وكذلك الجروح التي في رأسه ويديه.
- الحاج محسن: لابد له من الزواج، فهو بحاجة إلى أمرأه ترعى شؤونه، وتقضي حاجته، إلى متى يبقى وحيداً وقد تزوج أقرانه؟ انظروا إلى حاله وتبعثر حاجياته هنا وهناك (وهو يجوب بنظره ارجاء المكان حتى انه نظر إلى حوض الحنفية وفيه الأغطية والثياب).
- أبو حسين: نعم صحيح هو لا يستطيع أن يدير شؤون البيت والمزرعة والبيع وحده، ونحن نسيناه ولم نبادر بتزويجه والاهتمام به وهو ابن أخينا، جدّه كان من كرماء وأطايب رجال القرية، مَنْ يسعى إلى تزويجه وهو بلا أم أو أخت؟

عندما عاد سلمان إليهم ليقدم لهم الشاي بادره الحاج محسن:

- تعال يا سلمان أجلس بجانبي، سلمان إلى متى تبقى أعزب؟ وأقرانك كلهم قد تزوجوا وصار عندهم أبناء؟
- سلمان: يا عم أنت تعرف حالي، وتعرف تكاليف الزواج، وأنا لا اريد ان أظلم بنات الناس بفقري.

- الحاج محسن: يا سلمان كلنا فقراء ثم منَّ الله علينا، سأُكلف عمتك (أم حسن) تبحث لك عن زوجة صالحة فقيرة وطيبة، ونحن لن نتخلى عنك سنقدم لك ما نقدر عليه، ها، موافق؟
- سلمان: شكرا يا عم، حينما أتعافى سيكون لي معكم كلام حول الموضوع.

من بعد ان أنهى كبيرهم الحاج محسن كلامه قال أبو حسين:

- إلى متى تبقى هذه الانفجارات تقتلنا؟ يا ترى منْ يفعلها؟ وما الذي يوجد في شارع (أبي القاسم) ليفجروه ويقتلون الناس؟
- قالوا ان سيارة للجيش الاجنبي قد تم استهدافها بالتفجير.
- أبو حسين: عجيب! التفجير في الأسواق لا يفرق بين العراقي والاجنبي، فلماذا يستهدفون الأبرياء؟
- قال آخر: الأمور شائكة واختلط الحابل بالنابل في ظل هذه الاوضاع المربكة.
- الحاج محسن:(في محاولة منه لتغيير مجرى الحديث المؤلم) سلمان ما هذه الملابس في حوض الحنفية، (ضاحكا مازحا) حمراء وخضراء، هل تزوجت من دون علمنا؟

فضحك الحضور وأبتسم سلمان قائلا: هذه الأغطية والشراشف أغسلها بين حين وآخر (مع نفسه: استرني يا رب).

- **الحاج محسن: نعم، لابد لك من الزواج. يا جماعة هيا بنا فقد طال بنا المقام وسلمان بحاجة إلى الراحة.**

فقاموا جميعهم مودعين سلمان يدعون له بتمام الصحة والعافية، وهو يمشي خلفهم إلى الباب ثم قبّل يد الحاج سلمان وأغلق الباب، عائدا إلى المرأة.

حينما دخل الحجرة أدخل معه جمرات بقيت من نار الضيوف فوجدها تجول بنظراتها حول السقف تنظر إلى جذوع النخل وحصير القصب فوقها ثم تنظر في أرجاء الغرفة بدهشة وغرابة، وعندما وصلت بنظراتها اليه تكلمت بصوت ضعيف:

- **– Please where are me now? What is this place? How did I get here?**

ازدادت حيرة سلمان حينما سمعها تتحدث فمن أين له أن يفهم كلامها؟ فابعد ناظريه عنها وراح يقدم لها الطعام الذي جاء به أعمامه، الدجاجة المشوية وخبز التنور، لقد عرض أمامها كل الذي جاءوا به وهي تنظر اليه

مبتسمة في حيرة ودهشة، فأشار لها أن كلي، وخرج يغسل الشراشف والفراش ثم دخل وجلس غير بعيد يأكل مما تبقى من عشاءها ممنيا نفسه بكوب من الشاي يعدل مزاجه من بعد أن توالت عليه المفاجأت. وهي تتطلع إلى المكان حولها فشاهدت صورة ترمز إلى (أبي الفضل العباس عليه السلام) من واقعة الطف عُلقت بمسمار قبالة الباب وفي الجدار المقابل لها عُلقت صورة شمسية لرجل بالزي العربي وأمامه طفل سباعي قد حلق رأسه قَصة (الطاسة) التي كانت منتشرة آنذاك، فأشارت (هذا انت) فهز رأسه مجيبا، ثم رأت دولاب الملابس القديم وقد عُلقت على بابه من الخارج مرآة قد بانت عليها آثار الزمن ثم شاهدت في زاويةٍ ثلاجة صغيرة الحجم يعلو سقفها التراب وبالقرب منها وضعت مروحة منضدية صدئة على منضدة من خشب (التوت) وفي الزاوية الاخرى كانت البسط الشعبية (الفجة) ملفوفة ثم البوفية القديمة (النضد) وضع فوقها بعض الفراش والأغطية، ولما استقر نظرها على سلمان وهو يتابع نظراتها قالت:

– Please where are me now? What is this place? How did I

.get here -

تحير سلمان كيف يجيبها وهو لا يعرف لغتها، فأشار اليها بيديه انه لا يفهم ما تقول فقالت:

–You don't know what to tell you?
–Do you speak English or any language other than Arabic ?

. سلمان: يا ربي كيف سأفهم ما تريد؟

ثم أشار اليها واضعا إحدى يديه على رأسه والاخرى يحركها يمنا وشمالا قائلا: أنا لا أفهم ما تقولين.

Oh, you don't understand what I'm –saying.
Oh my God, how will I be able to –understand him.
–If I had my book, I would have spoken to the man with his accent.
–My memory does not help me to remember some of their words. Oh my head hurts.

طيلة حديثها هذا وسلمان يراقبها مندهشا ينظر إلى فمها كيف ينطق أصوات غير مفهومة. ثم نهض وجاء بقدحين وقدم لها الشاي، فشربت بتلذذ واشتياق. من بعد أن شبعت وتمالكت نفسها استوت بجلستها متكئة على الوسادة خلف ظهرها وهي تنظر إلى حالها وملبسها رافعة عنها الغطاء فرأت الثوب الأسود يغطي ساقيها فرفعته قليلا لترى أنها لم تعد تلبس البنطال فاتجهت بنظراتها المتسائلة إلى سلمان الذي أدار بوجهه عنها مبتعدا إلى الزاوية منذ ان رفعت الغطاء عنها.

لقد كانت في دهشة وحيرة تشتت افكارها التي تحاول أن تستجمعها، لكنها أحست بشيء من الاطمئنان من سلوك سلمان معها. في نفس الوقت كانت محاولاتها للتعرف على الذي حصل وكيف جاءت إلى هنا وما هذه الثياب التي تلبسها. كانت هذه الأفكار جديرة بأن تعيد اليها الصداع والرغبة في النوم فأعادت الغطاء عليها واضعة رأسها على الوسادة وقد استدارت على جنبها مقربة ركبتيها من وجهها كوضع الطفل في رحم أمه مستسلمة لقدرها وراحت تغط في نوم عميق. أما سلمان فقد بقي بحيرته: أيبقى في الحجرة معها؟ كيف ذلك وهو القروي الذي يستحي ان يكون معها في مكان واحد أثناء النوم، ففكر أن يبيت خارج الحجرة برغم البرد في تلك الليلة الشتائية فعزم على ذلك الامر وأخذ غطاءه ملتفعا به قاصدا احدى شجيراته يحتمي تحتها من البرد.

لم تكمل (إيما) العقد الثالث من عمرها، حينما دخلت الجيش متطوعة، من بعد أن أكملت دراستها الجامعية في قسم الاجتماع. أكملت تدريبها الأساسي فوظفوها في قسم الاستخبارات العسكرية وكانت مهمتها دراسة مجتمع النساء في المدينة وامكانية تعاونهنَّ مع الجيش الأجنبي وجمع المعلومات لتمكين فرقتها من بسط نفوذها، لقد كانت تلك مهمتها الاولى خارج بلدها وهي لمّا تزل تحتفظ بقدر كبير من شخصيتها المدنية. بعد ساعة استيقظت وهي تحس بحاجة ملحّة للذهاب إلى دورة المياه، أجالت نظرها في الحجرة باحثة عن الرجل المجهول الذي كان معها، حملت نفسها بصعوبة وقامت من رقدتها وهي تتمايل في مشيتها قاصدة الباب ففتحتها واستغربت من المكان حولها فالظلام يلف الأرجاء إلا من بعض الاضواء الخافتة هنا وهناك، والصمت سائد في تلك الليلة كما هو معهود في ليالي القرى فالناس فيها يخلدون إلى النوم مبكرين ويستيقظون منذ اللحظات الأولى لغبش الفجر، خرجت من الباب فامتلأ صدرها بعبير البستان المنعش رغم برودته فأحست براحة بددت عنها بعض آلامها وحيرتها وهي مستندة إلى الجدار خلفها لعله يعينها على الوقوف وهي تحس بدوار خفيف.

كان سلمان على مرمى البصر منها فقد كان قاصدا أن يكون قبالة باب الحجرة، وقد أثار انتباهه صرير الباب أثناء فتحه فجاء مسرعا إليها. أول

الأمر أحست بخوف شديد من القادم من خلال ذلك الظلام لكنها ما لبثت أن عرفته فبادرته بكلماتها التي لا يفهمها:

-Where is the toilet please ?

-Oh, he doesn't understand what I'm saying.

فأشارت اليه بيديها كالذي يغسل وجهه، ففهم سلمان منها وقادها إلى الحنفية، وعندما رأت ابريق الماء قربها أخذته ورفعته أمام سلمان مشيرة به، ففهم مرادها فأخذها وهي متكئة على ذراعه إلى مكان المرحاض الذي كان بعيدا عن الحجرة فقد كانوا يبنون المرافق الصحية بمكان بعيد عن البيت، أوصلها إلى المكان وتركها هناك وعاد مسرعا إلى مكانه ينتظرها.

خرجت وهي تتمايل في مشيتها وفي نفسها مخاوف كثيرة فربما تكون مختطفة؟ ربما اعتدى عليها؟ ما هذه الآلام في رأسها ووجهها ويديها وظهرها؟ ما هذا الثوب الذي تلبسه؟ آه محفظتي أين محفظتي؟ نقودي وبطاقتي لقد سرقها مني فقد أخبروني أن هؤلاء خطرين، يسرقون ويقتلون، نعم إنهم يكرهوننا، يا ربي ساعدني، أين أنا وما هذا الذي يحصل معي؟ كانت هذه الأفكار تجول في رأسها وهي تعود إلى الحجرة بمساعدة سلمان الذي بادر اليها عندما رآها تخرج وهي تتمايل في مشيتها.

عندما وصلا إلى باب الحجرة أشارت إلى دكة مبنية مع الجدار تستعمل للجلوس عندما تشرق الشمس أيام البرد القارس، ففهم مرادها وجاء بالحصير واجلسها عليه وابتعد عنها لئلا يضايقها وهي مازالت تدور في ذهنها الأفكار وهي تتأمل المكان محاولة التعرف عليه: لماذا يبتعد عني وحينما أحدثه لا ينظر إلي؟ يحاول دائما أن يشيح بوجهه عني؟ هل هم يكرهوننا إلى هذه الدرجة؟ آه نعم محفظتي أين محفظتي وأخذت تتحسس ملابسها فانتبه اليها سلمان مستغربا، كان يخشى أن تكون حشرة دخلت بين ثيابها فجاء اليها متسائلا مشيرا بيده بالحركة المعروفة وهي تردد:

My wallet Where is my wallet Where are –my clothes ?

مع كل كلمة كانت تشير بيدها لعله يفهم مرادها فتحير منها ثم أدرك ما تريد حينما أشارت إلى البنطال وحركة أصابعها مشيرة إلى النقود، فأومأ بيده إلى مكانه تحت الحنفية فجلبه يحمله بطرف أصابعه وألقاه على الأرض أمامها فأخذته على الفور تتفحصه وقد رأت الدماء عليه جامدة ففتشت جيوبه تبحث عن محفظتها، فتعجبتْ عندما وجدتها في مكانها ففتحتها وإذا بأشيائها على حالها لم يمسها أحد حينها اطمأنت أنها لم تتعرض إلى السرقة، لكن كيف جاءت إلى هنا ومن هذا الرجل الذي يقدم لها ما تريد ويعينها في محنتها؟

أما سلمان فقد لاحظ صورة في محفظتها فأشار اليها من دون تردد مستفهما، فقد لمح شكل رجل معها في الصورة. فأخرجتها من المحفظة وأعطتها لسلمان ينظر اليها ويتفحصها، فشاهد رجلا يضع يده على كتفها ويده الأخرى تمسك يدها التي أمسكت باقة صغيرة من الزهر الابيض ويبدو على وجهها الفرح، امتعض من هذا المنظر متوجها اليها بالإشارة كأنه يسأل مَنْ هذا؟

ففهمت ما يريد فأشارت بإصبعها إلى أثر الخاتم فتذكرت اين هو؟ فرجعت إلى المحفظة تقلب جيوبها فوجدته في أحد الزوايا ثم أخرجته بإصبعيها لتريه لسلمان فنظر إليه وراح يجلس القرفصاء على الأرض قريبا منها وقد ركبه هم وغم جديد وإحباط جعل الأشياء حوله تبدو باهتة بلا جمال. محدثا نفسه المغمومه وهو يخط بإصبعه على التراب بعشوائية:

ها سلمان؟ ما قولك الآن وقد أخذتك الأحلام والآمال بعيد أيها الأغبر؟ ما بك لا تنتظم حياتك؟ ترفع رأسك إلى الأعلى حتى تنكسر رقبتك، لما هذا الحال الذي وضعت نفسك فيه؟ ألم تُعجبك بنات عمك حتى رحت تبحث عند الغرباء؟ كلْ واشبعْ مما طبخته لنفسك. هيا خذها الآن إلى دورية الشرطة يعيدوها إلى جماعتها، كيف تُحب امرأة قلبها ليس لك بل قلبها مشغول بغيرك؟ قم الآن وخذها هيا. فنهض سريعا يريد أن يجمع ملابسها في كيس ويأخذها بدراجته.

أما هي فقد عادت بها الذكريات إلى خطيبها الذي قُتل في افغانستان، فأخذت الصور والخاتم واقتربت من سلمان لتقول بالإشارة انه قُتل في افغانستان، فاستغرب واشار اليها ماذا تقولين فأعادت عليه (He was killed in Afghanistan) فقال: افغانستان؟ واشار بإصبعه إلى صدره وأغمض عينيه مشيرا إلى الموت. فهزت رأسها بحزن ولمعت في عينيها الدموع فقال: هو في افغانستان وأنت هنا في الحلة، ما الذي يجري؟ هل تركتم مكانا لم تذهبوا إليه؟ ماذا تريدون؟ ثم قال وهي تنظر في وجهه مستفهمه: وكيف لك أن تفهمي كلامي؟ البقاء في حياتك.

ثم ذهب يتشاغل بغسل الصحن الذي أكلت فيه، وتركها جالسة على المصطبة وفي ذهنه ما يعرفه عن الأجانب بانهم: لا يصلون ولا يصومون وأنهم يأكلون لحم الخنزير ولا يغسلون أيديهم، ههههه عندما يدخلون إلى المرافق لا يغسلون بل يمسحون هههههه هذه المرأة تتمسح كيف لهم أن يفعلوا ذلك، آه ثوب أمي كانت تحرص عليه ان يكون نظيفا دائما، سأنظفه من بعد أن تلبس الثوب الذي اشتريته لها سأنظفه بالماء والصابون جيدا وسأبقيه تحت الشمس حتى يطهر وتذهب رائحتها منه، آه يقولون إنهم يكرهون المسلمين، نعم أيضا قالوا إنهم لا يعرفون آباءهم، سأعيدها إلى أهلها، فبقاؤها عندي يجلب لي المشاكل وأنا أستحرم من وجودي معها بمفردنا، ربما ستحاول قتلي أو الهروب والاتصال بجماعتها فيأتون

ويهدمون داري وربما يقتلون أهل القرية ويحرقون بيوتهم، يا ويلي كيف فعلت هذا مالي ولها أنا لا أستحي لا أستحي ،ماذا سيقول عني ابناء عمومتي لو شاهدوها هنا في داري ماذا لو رأتها احدى نساء القرية يا الله خلصني من ورطتي هذه أعاهدك أني لن اعود لمثلها أبدا أبدا.

انتبهت اليه (ايما) وهو غارق في افكاره يتشاغل بغسل الصحن في هذا البرد القارس وفكرت لو إنها تستدرجه بلطف لتعرف شيئا مما حصل فذاكرتها لازالت مشوشة فهي تذكر أنها كانت ذاهبة مع المترجم إلى السوق في (شارع أبي القاسم) ولكن ما الذي حصل ما هذه الجروح والدماء والكدمات، كيف جاءت إلى هنا؟ لماذا هذا الرجل يعاملها بلطف؟ أين قسوتهم التي درستها أثناء التدريب إنه يتلطف معي يسقيني الدواء والحليب، غيَّر ملابسي بثياب أخرى، محفظتي على حالها ولكن لماذا وضع ملابسي في الحفرة؟ آه هذه الأفكار تكاد تقتلني، رأسي نعم رأسي يؤلمني سأطلب منه الدخول إلى الغرفة أشعر ببرد في جسمي وأخاف أن أُصاب بالزكام فتسوء حالتي أكثر، نعم سأدخل وأعامله بلطف، ثم تقدمت إلى سلمان وهو لمّا يزل في مكانه وأشارت اليه بالدخول إلى الغرفة. فهم سلمان ما تريد واخذ بيدها وأدخلها الغرفة ويداه ترتجفان من البرد والإحراج الذي بدا على وجهه المحمر وتعرّق جبهته رغم برودة هذه الليلة، ثم أعاد إذكاء الموقد وقرب إبريق الشاي من النار لعله يجد في

الشاي الساخن دفئا وراحة تُذهب عنه البرد والهموم والإحراج، أما (إيما) فقد لفت جسمها بالغطاء واتكأت على الوسادة وعيونها محدقة بنار وجمرات الموقد. عندما بدأ الابريق ينفث البخار المحمل بعبق الشاي اخذ سلمان وملأ كأسين منه قدم أحدهما اليها وأخذ الآخر يرتشف منه بصوت مسموع فانتبهت اليه مبتسمة تكتم ضحكتها، وهو ينظر اليها باستغراب لا يدري بماذا تفكر. ثم صار في نفسها ان تبدأ معه بحوار عن طريق الإشارة وتمثيل الحركة فقالت مشيرة بيدها إلى نفسها:

- **I am Emma**، ثم تكرر **Emma** ، **Emma** وأشارت بإصبعها اليه **and you?**
- فقال سلمان: إيما؟
- فقالت: **yes Emma. I am Emma. And you?**

ففهم سلمان أخيرا إنها تقول أن اسمها (إيما) وتريد ان تعرف اسمه فقال:

- (سلـــمان) (كان يظن أنه لو قالها هكذا كما يعلمون الأطفال ستفهم أفضل).
- فقالت مشيرة إلى نفسها: (**Emma**) ثم اشارت اليه وقالت (**salman**)؟
- فقال لها: نعم أسمي سلمان.

ثم أشارت إلى المكان مستعلمة، ولم يفهم منها سلمان وحتى لو فهم كيف سيخبرها القصة، فحسم الموقف وأشار اليها أنه يريد النوم وغدا يأتيها بشيء تفهم منه، هزت برأسها يائسة تنظر اليه وهو يأخذ غطاءه لينام خارج الحجرة، فتعجبت من فعله هذا وهي التي كانت تظن أنه يعتدي عليها فوضعت رأسها على الوسادة سارحة بأفكارها محاولة ان تستعيد ذاكرتها.

عندما خرج سلمان لاحظ أن السماء بدت وردية داكنة فعرف أنها الغيوم الممطرة فنام على المسطبة قرب الباب، حتى أيقظه صوت المطر ورذاذه فجمع غطائه وفرشه إلى صدره ودخل الحجرة مسرعا فرأى (إيما) جالسة تنصت إلى صوت المطر، فلما رأته مدت يدها ليعينها على النهوض فقد كانت تحب صوت المطر ونزوله على الأشجار وجريانه على الأرض، فأخذ بيدها بذراعه وأوصلها إلى الباب فجلست تنظر وتسمع تلك الأصوات وتملأ صدرها من رائحته المنعشة.

أما سلمان فقد أخذ الزاوية البعيدة من الحجرة مستلقيا على جنبه ينظر إلى (إيما) فغلبه النوم الذي تسلل إلى جفونه خفية.

في صباح اليوم التالي فتح سلمان الباب فوجد الأرض مبتلة فعرف انه لن يستطيع الذهاب إلى السوق بهذه الحالة. فعاد إلى مكانه يمتع نفسه بالدفء، ثم نهض مسرعا لسماعه صوتا يناديه:

- سلمان سلمان أين أنت؟ تعال ساعدني.

ففتح الباب وإذا بها (أم حسن) قد جاءت تتلمس الطريق بعكازها، فمشى اليها مسرعا: خيرا عمتي (أم حسن) هل حصل مكروه؟

- أم حسن: لا لم يحصل شيء، ما بك؟ هل تريد أن أرجع؟ أم أنك لا تحب الضيوف؟
- سلمان: أهلا بك عمتي (ثم قبّل يدها عندما وصل اليها وأخذ ها يساعدها على المسير في هذه الأرض الزلقة) ومرحبا، فاجئتيني بقدومك في هذا الجو الممطر فحسبت أن شيئا حصل.

ثم سار بها إلى الحجرة مستسلما كالأسير وقد أيقن بالفضيحة المجلجلة فليل الشتاء الطويل حري بأن يجعل الألسن تلوكه مع الشاي ومواقد النار.

وصل إلى باب الحجرة وهو يرفع صوته بالتحية للحاجة (أم حسن) التي زارته على غير موعد كالموت الذي يخطف الارواح وها هي اليوم ستخطف أحلامه وآماله وتمرغ حظه في طين شتائي يمتد من باب الحجرة حتى آخر بيت في القرية.

كان يأمل ان تسمع (إيما) الأصوات فتخفي نفسها تحت الأغطية، لكن على من تُخفي نفسها فهذه (أم حسن) كبيرة النساء وخبيرتهنَّ التي

يقصدنها في الصغيرة والكبيرة، فهي امرأة سبعينية قد خبرت الحياة بخيرها وشرها وقسوتها ورأفتها، إنها أم حسن يا سلمان، أم حسن التي يحترمها ويجلها رجال القرية كلهم.

هكذا كانت الأفكار تتوارد سريعة على رأسه، ففتح الباب ولم يقوى على نطق (تفضلي يا عمه) فبقي ساكتا ريثما تدخل وتبدأ بتعنيفه وتوبيخه بلهجة شديدة.

فدخلت بعكازها ومشيتها المتمايلة لبدانتها، فجلست مسندة ظهرها إلى الجدار المقابل للباب الذي بقي مفتوحا طلبا لدخول الضوء فقد كانت المصابيح مطفأة بسبب انقطاع التيار الكهربائي. فبادرته قائلة:

- قد جئتك في هذا الوقت لأني أعرف أنك لا تطلع والسماء ممطرة، فقد أخبرني عمك (الحاج محسن) أنهم عزموا على تزويجك، وأريد ان أعرف منك ما تريد وأقترح عليك بعض العوائل.
- سلمان: عمتي لقد اتعبتي نفسك فالوقت لا يزال مبكرا على هذا الأمر.
- أم حسن: سلمان أنظر لحالك الوقت ليس مبكرا إنما انت متأخر، إلى متى تبقى وحيدا أعزب، ألا تريد امرأة تساعدك وترتب بيتك الذي يبدو كزرع داسته الابقار ألا ترى حالك (ثم أخذت تنظر إلى زوايا الغرفة وتشير

اليها: أنظر، أنظر (ولما وقعت عينها على (إيما) وقد بدأت الرؤية تتضح أمامها) قالت مستغربة:

- ما هذا؟ (وهي تجيد النظر) ما هذا سلمان؟ مَنْ هذا المتدثر عندك؟
- سلمان:(لا يجيب، شاحب الوجه، خائر القوى، تتراقص عينيه ما بين (أم حسن) و (إيما).
- أم حسن: (صارخة) ما بك؟ اخضر وجهك؟ وازرقت شفاهك؟
- سلمان: (جف فمه ولسانه فلم يعد ينطق بحرف واحد، وعيونه كأنما حفرت في الأرض ونامت).
- أم حسن: أأنهضْ وأكشف مَنْ هذا؟ تكلمْ.
- سلمان: (يشير بيده الرخوة إلى إيما من دون كلام).

أرادت (إيما) أن تنظر ما الذي يجري وما هذا الصوت النسوي العالي، هل هي زوجته؟ فحركت الغطاء قليلا عن وجهها وإذا بعيونها تلتقي بعيون (أم حسن) التي ركزت بنظرها مستغربة:

- امرأة؟ سلمان هذه امرأة؟ ثم التفتت اليه متسائلة: سلمان أجبني مَنْ تكون هذه؟ هل هي؟ لا لا أقدر على لفظها، سلمان هل أنت من هذا النوع من الرجال؟ تأتي بالنساء إلى بيتك؟ (ثم طفقت تلملم عباءتها عن الأرض) سلمان فراشك نجس؟ تكلم سلمان مَنْ هذه؟

- سلمان: (كأنه الصنم لا يسمع ولا يتكلم بل لا يقدر على الحركة أيضا).
- أم حسن: سلمان إذا لم تتكلم وتقول مَنْ هذه سأصرخ الآن بأعلى صوتي ليجتمع رجال القرية ويرون فعلك المشين هذا.
- سلمان:آه، ها، أن آه؟

أم حسن: ما بلك تتأوه هل بلعت لسانك إيها النجس؟ (فنظر سلمان إلى (إيما) وقد قامت متجهة إلى أم حسن).

تعجبت (إيما) من حالة سلمان هذه فتقدمت نحوه تطَّلع على أمره، حينما اقتربت منه وجدته ساهما، عيونه عليها وفمه مفتوح يحاول أن يحرك لسانه، فخافت من هذا المنظر، همت بالرجوع إلا إنها استجمعت قواها واقتربت منه ثانية وحركته منادية بلهجتها: سلمان، سلمان.

وإذا بسلمان يصرخ مرعوبا ويجلس من نومته فقد كابوسا رهيبا جثم على صدره فقام متمايلا يبحث عن ماء يرطب به فمه ولسانه ثم خرج ليجلس على المصطبة خارج الحجرة يتنفس الهواء النقي من بعد أن ضاق صدره وحُبست أنفاسه.

كان النهار قد قارب إلى الانتصاف والسماء مازالت تمطر بين آونة وأخرى فخرجت (إيما) تبحث عنه وتطمئن عليه وحينما وجدته على المصطبة جالسا قعدت بقربه تنظر إليه متسائلة في نفسها ما به؟ ولم كل

هذا التأثر؟ فرأت لو أنها تفتح معه حوارا قد يساعد على فهم ما يجري فقالت له مشيرة إلى النخلة القريبة منهما:

- **Tree**
- سلمان: (وهو مستفهما منها) تري؟
- فهزت رأسها بنعم؟
- سلمان: نخلة.
- إيما: (أعادت اللفظ بلهجتها) نخلة.
- سلمان: نعم نخلة.
- سلمان: رحمك الله يا استاذ (فيصل) أتعبناك كثيرا وأنت تعلمنا الانكليزية، آه ولكن أنّى ذلك وفقد الأم وتدبير المعيشة والجدُّ الذي كان لي أما وأبا؟ مَنْ كان سيرعى شؤونه؟ بذلت الجهد الجهيد حتى أكملت السادس الابتدائي، ثم جاءت الأحداث والمصائب علينا تترا حتى محت من ذاكرتي ما ضربتنا لأجل تعلمه يا أستاذ (فيصل) رحمك وأحسن اليك.
- إيما: (هزت راسها مستفهمة)? **what do you say**
- سلمان: لا أفهم ما تقولين ولا تفهمين ما أقول، ههه لنتحدث مثل البكم.
- إيما: (وهي تحاول أن تعيد الحديث إلى أوله، فمدت يدها تحت المطر) قائلة:**rain** ؟

- **سلمان: رين؟ مطر إنه مطـــر.**
- **إيما: (بلهجتها) مطر، مطر، ثم أشارت إلى المكان بكلتا يديه قائلة: grove**
- **سلمان: أهاا كروف، أتعرفين(الگـرگـف)[١٣]؟**
- **إيما: (وهي تشير اليه) you (ثم إلى نفسها) I am.**
- **سلمان: ضاحكا، آآه نعم نعم تذكرت (يو) أنت و (مي) أنا، نعم تذكرت أنا أعرف بعض الكلمات (يس، نو، ثانكيو، كدباي، ووتر، تي، برَيد، اوكي) يردد هذه الكلمات وهو يضحك فرحا أنها أنعشت ذاكرته حتى أنه ظن انه يتحدث الانكليزية وهو لا يدري بنفسه.**

أما إيما فقد كانت تردد الكلمات التي ينطقها بلهجته فتصحح النطق مشاركة إياه الضحك والابتسامة التي ربما لن تدوم كحال سلمان. فارتأت أن هذا هو الوقت المناسب لتسأله ما الذي حصل وجاءت إلى هنا، فإن ذاكرتها بدأت تعود اليها ولكن بصورها المشوشة الغير مترابطة. فحاولت جاهدة بالإشارة والكلمات التي نطقها ونطقتها أن يفهم سؤالها؟

(١٣) الگــرگــف هو التراب الذي يعلو ضفتي الساقية في البستان.

- سلمان: (مركزا نظره وعقله وعينيه عليها، ينظر حركتها ونطقها وتعابير وجهها وإشارات يديها، ففهم أنها ربما تريد أن تعرف كيف جاءت إلى هنا نعم إنها تؤشر على نفسها والمكان وتحرك يديها إلى الجانبين) فقال لها: انفجار حصل، انفجار في الشارع (ويشير بيديه المفتوحتين إلى الاعلى، ويقلد صوت الانفجار) آه نعم تذكرت سآتي حالا.

ذهب مسرعا يتمايل على الأرض الزلقة إلى دراجته التي ركنها أمام باب البستان فأخرج الجريدة وجاء بها إلى (إيما) ففتحها أمامها وأشار إلى صور الانفجار. فراحت تتأمل الصور المنشورة، فتغير لونها وفرحها إلى حزن عميق وخوف فقد استعادت تلك الذكريات المرعبة التي مرت بها في ذلك اليوم وراحت تتأمل جراحها وتنظر إلى سلمان نظرات حزن وتساؤل فبدأ يشرح لها الذي حصل بالإشارة إلى نفسه وصورة المكان ثم مثل لها كيف حملها على الدراجة وجاء بها إلى هنا.

لم تفهم (إيما) كل الذي كان يعنيه سلمان بإشاراته لكنها فهمت ما يطمئنها انها لم تكن مختطفة وأنها تعرضت لحادث انفجار أما التفاصيل الاخرى فلم تفهم منها إلا فهما سطحيا، ثم أشار اليها أنه سيأخذها إلى مركز المدينة عندما يحل الظلام.

لقد خرجت (إيما) كليا عن تلك اللحظات الجميلة التي شعرت بها وهي تُعلم سلمان بعض الكلمات وكيف أنه فرح واستعاد بعضا منها، وعادت اليها مخاوف العابرين الحدود الغرباء الذين يخشون على أنفسهم من كل حركة أو صوت غير معهود عندهم، عادت اليها تلك الصور التي شاهدتها عند دخول الجيش إلى البلد تلك البيوت المهدمة والاشجار المحروقة والقتلى في الشوارع وانفجار ومقتل زملائها واصدقائها في العمل، فتساءلت في نفسها: لم كل ذلك؟ ما الذي جاء بي إلى هنا؟ وهؤلاء الذين قتلناهم وأحرقنا بيوتهم هل مجرمون؟

ثم التفتت إلى سلمان مستفهمة: **Why did you bring me here?**

موضحةً ذلك بالإشارة إلى نفسها وإلى سلمان الذي فهم مرادها وتحير في الجواب فأطرق إطراقة المفكر: ماذا أقول لها؟ فعلا لماذا جئت بها إلى هنا؟ لقد كان الموقف آنذاك مرعبا مربكا لا يدري المرء ما الذي سيفعله حينها، لكن لماذا جئت بها إلى هنا؟ الارتباك؟ الخوف؟ أم هو...؟ هل ستفهم؟ وكيف سأوضح لها ذلك؟ الإعجاب نعم لنقل انه الإعجاب، كنت معجبا بها وفي غفلة وارتباك جئت بها. أم هو الحب؟ هااا يا ويلي

ما الذي أعرفه عنها حتى أُحبها؟ ماذا تسمى هذه الحالة رأسي سينفجر، وضع كفيه على صدغيه كالمتألم من رأسه، فنادته:

- سلمان، what?
- فأشر لها أنه عندما رآها تسقط حملها على كتفه.
- إيما: yes, but why here?(أشارت اليه مع اللفظ ليفهم).
- سلمان: ما دمت سأُعيدها إلى أهلها سأقول لها الحقيقة ولتفهم أو لا تفهم، سأنفجر من هذه الورطة (فأشار إلى عينيه وإليها ثم إلى قلبه وسحب كفيه مضمومتين إلى صدره) قائلا: عندما رأيتك دخلتي في قلبي، OK؟
- إيما: When you saw me, I entered your heart؟ (وهي تعيد نفس إشاراته وتنطق بلهجة متسائلة):
- سلمان: نعم، yes، ولا أدري لماذا جئت بك إلى هنا، كان المفروض أن أذهب بك إلى المشفى. لا أدري هذه هي الحقيقة. يا ربي كيف ستفهم ما أقول؟
- إيما: مبتسمة وطرف شفتها السفلى في فمها تحدث نفسها، أنقذني، جاء بي إلى هنا، كيف سأربط بين هذا وذاك؟ هل هو الشعور بالأمان فجاء إلى بيته؟ أم هو التملك؟ هل كان يعتقد أني ملكه فجاء بي؟ هو لم يؤذيني وكان لطيفا معي جدا، نعم هذا واضح، لكن يا ترى هل أحبني؟ هاااهاها معقول هذا؟ ربما، فالحب موقف إنساني، هو لم يمسني بسوء حتى أنه

يتجنب لمسي أو التحديق بي، أيحدث هذا في هذه الأزمان؟ حب الأرواح كما قالوا؟ غريب هذا الأمر! بمجرد أن يراني يُعجب بي ويجدني من خصوصياته ويحافظ عليَّ وينقذني، ويبقيني كما أنا! آه ربما فجمال الطبيعة عندهم وانبساطها وبساطتها ومعيشتهم المتناغمة معها ربما تجعلهم يأخذون الأمور ببساطة يُحبون ببساطة وربما يكرهون ببساطة أيضا مَنْ يدري.

بدأت (إيما) تتمالك نفسها فنهضت تمشي إلى سلمان الذي تركها لأفكارها وذهب يتشاغل بزرعه وعنزته تنظر ماذا يفعل، ثم تجول بنظراتها وإذا بها تنبهر بالطبيعة التي شاهدت جزءا بسيطا منها، فالشمس تغيب على هذه الاشجار وتُظهر ألوانها خضراء لامعة مشوبة بلون الغروب الجميل بظلالها وروعتها وهذه الأرض المزروعة بطرق بدائية تتناغم مع ما حولها، فالبيت مبني من تراب الأرض المزروعة، و البساط الذي نامت وجلست عليه مصنوعٍ من تلك الشجرة الجميلة الفارعة الطول وهي تكرر بلهجتها (نخلة)، وهذا الهواء الذي تتنفس بملء رئتيها لماذا هو منعش ويشعرها بالراحة والاطمئنان، والهدوء الضارب على أرجاء المكان كم هو مريح ومهدئ للأعصاب! فهي الآن تحسب نفسها جزءا من هذه الطبيعة على الأقل. لقد كانت تمرّ مع فرقتها العسكرية بالكثير من الطرقات الريفية لكنها كانت مجرد مشاهدات خارجية غريبة عنها، أما اليوم فهي

وسط هذه الأجواء تعيش كما يعيشون وتأكل مما يأكلون، لقد لاحظت أنها حياة بسيطة فالبيت غير متخم بالأثاث والأدوات، ملابسهم بسيطة وفضفاضة، إنهم يتعايشون مع الطبيعة يأخذون منها بمقدار ما يحتاجون، ويبدو أنهم مسالمون ويمتلكون من العاطفة الإنسانية الشيء الكثير، وليس كلهم عدائيون ومخربون، لقد عاملها سلمان بكل إنسانية واحترام، لقد كانت تتمنى في تلك اللحظة أن تخرج إلى الطبيعة تركض وتلعب وتقفز لقد كانت تتمنى لو أنها تستطيع أن تصعد تلك النخلة وترى المكان حولها وتشبع ناظريها بجمالها، كانت تحس أن لها روحا بدأت تدب بها الحياة، روحا أُعيدت لها الحياة، أخذتها هذه الأفكار وصيّرت عندها نشوة فرح كادت أن تخرجها من عقالها فتلقي ما عليها وتفتح الباب على مصراعيها وتركض لتقف وسط تلك المزارع وتفتح ذراعيها وترفع رأسها للشمس وتأخذ الانفاس العميقة وهي تدور حول نفسها، لقد أرادت أن تحتضن الطبيعة بكل ما أُوتيت من قوة، يا لله ما أجمل هذا المكان !

لكنها في اللحظة الاخيرة تمالكت نفسها وعادت إلى الحجرة ترتب الاشياء على بساطتها، ولما وصلت إلى ذلك الدولاب القديم ذي الباب الواحدة شاهدت صورتها تنعكس على مرآته الكبيرة المرفوعة على بابه، فتأملت نفسها بثوبها الأسود الطويل ورأسها الملفوف بالشال لقد كان وجهها مضيئا وسط ذلك السواد الذي يلفها من رأسها حتى قدميها،

فراحت تدور بجراحها وألمها حول نفسها كطفلة فرحة بثوبها الجديد وهي تشاهد ذيل الثوب كيف ينفتح كالمظلة جراء دورانها حتى أنها كانت تضحك بصوت مسموع وتدور في أرجاء الحجرة فتوقفت ساكنة مضطربة عندما سمعت طرقا على الباب، فلم تتحرك من مكانها وبقيت ساكنة تترقب وقد داخلها خوف أعاد اليها همومها وثقل نفسها، ثم تكرر الطرق مرة أخرى وسمعت صوتا يناديها ! فتحيرت من يعرفني هنا؟ آه انه سلمان، نعم هذا صوته فتحركت نحو الباب تفتحها فدخل سلمان وحياها بيده وهو يحمل ثيابها التي كانت معلقة على الحبل، مشيرا اليها بلبسها ثم خرج وأغلق الباب خلفة.

فأخذت الثياب منه تنظر إلى جما ألوانها الزاهية، فلبستها ونادته من خلف الباب فدخل ليراها بوشاحها الجديد وكأنها تريد أن تعرف رايه فيها، فابتسم واطرق خجلا وأخذ ثوب أمه ووشاحها ليغسله وهي تنظر إليه من فتحة الباب متعجبة من فعله هذا. ثم عاد إليها يقدم لها العشاء الأخير فابتسمت راضية، وحينما دعته ليأكل معها رفض وخرج يهيء نفسه للرحيل، فقد كانت السماء تسحب الظلام غطاً، فصارت الأشجار والأشياء أشباحاً رمادية داكنة من بعد أن كانت خضراء يانعة.

أكملت (إيما) طعامها فخرجت اليه تنظر في وجهه فدعاها للجلوس وجاءها بالشاي، وعندما يتحين له النظر إلى (إيما) كانت تأخذه الأفكار عنها وعن جيشها الذي جاءت معه، لماذا جاءوا إلى هنا؟ ما الذي يريدونه منّا؟ وهل أن الذي حصل لها كان بحق؟ لابد أن يضع على صورتها الجميلة في عقله صورا أخرى تُخرجها من رأسه فلا سبيل اليها: (أنا حزين لذلك حزين، يبدو لي انها إنسانة طيبة فقد رأيتها عن قرب، هل هي كذلك؟ أم لأنها هنا لا تدري شيئا عن المكان؟ أو لأنها بعيدة عن جماعتها؟ يا ترى عندما أذهب بها إلى المدينة هل ستأتيني بهم؟ فيحرقون بيتي أو يعتقلونني؟ ربما، ربما يفتشون بيوت القرية أيضا؟ لا أدري الله أعلم المهم عندي أنى سأخلص نفسي من هذه الورطة، سآخذها في عربة الدراجة ففي هذا الجو الممطر تكون حركة الناس قليلة جدا، وعندما أشاهد الدورية من بعيد سأتركها تذهب إليهم واهرب).

ثم توجه إلى (إيما) يخبرها أنه سيأخذها إلى أهلها، وأعطاها كيسا تضع فيه ملابسها المتسخة لعلها تريد أن تأخذها إلى المعسكر فامتزجت روحها بمشاعر فرح وحزن، تبتسم لعودتها إلى جماعتها وتحزن لموقف سلمان الإنساني منها، إنها الآن متعبة مثقلة بهموم لا تقدر أن تجد لها حلا، كأنها تكتم نشيج بكائها، لقد كانت ترغب في تلك اللحظة لو أن أمها بقربها فتأخذ بأحضانها وتبكي بين ذراعيها بكل الدموع التي في مقلتيها،

فاستغرب منها حينما رأي وجهها ذاك الذي كان يتأمله بكل شوق في شارع (أبي القاسم) كئيبا بللته دموعها التي لم تنقطع ويسمع نشيجها الذي تحاول أن تكتمه جاهدة لكن دون جدوى، وعندما ألتقت نظراتهما تفاجئت بدموع سلمان تنساب على وجنتيه ولحيته فازداد نحيبها وأرادت أن تضمه إليها لكنه ابتعد عنها مرددا (حرام، حرام) فتراجعت عنه في حيرة ودهشة وهي لا تدري ما الذي يقوله. فأخذ يحاول أن يطمئنها بالإشارة انه سيأخذها إلى دورية الجيش الاجنبي ظنا منه أنها تبكي لوجودها معه، عندما يئست من التواصل فيما بينهما بالكلام قامت تطوي الملابس في الكيس ثم إلى المكان ترتبه وتنظفه وتحمل بقايا الطعام وابريق الشاي إلى خارج الحجرة فبادرها سلمان واخذ منها تلك الاشياء ليضعها تحت الحنفية وهو لا يقل غما وكآبة عنها، ثم عاد إليها ينظر في حاجتها ولما رآها جالسة تنتظر وقت الرحيل خرج ليجلس على الدكة يفكر في (إيما): إنها تبكي بحرقة، تريد أن تشكرني، إنها على حقيقتها في هذه الموقف هي امرأة مثل نسائنا تتألم وتفرح مثلهن لكن ما الذي جاء بها مع العسكر؟ إنسانة بهذه المشاعر هل لديها القدرة على القتل؟ هل هي حقا قاتلة؟ لا أظن ذلك ولو كنت أعرف لغتها لسألتها مَنْ الذي أدخلها الجيش؟ لماذا؟ أفاق سلمان من أفكاره عندما أحس (بإيما) تجلس على مقربة منه تنظر إليه ثم إلى البستان حولها تأخذ من رحيقها

تملأ صدرها من عطرها المميز تفكر بدموع سلمان: لقد بكى بمجرد أن رآني أبكي! يا الله إنهم أناس مثلنا مشاعرهم عميقة وإحساسهم مرهف، ما الذي عرفه عني حتى سالت دموعه، إنهم يبكون لموقف انساني! لماذا درستُ عنهم أنهم أناس قساة أجلاف لا يحترمون المرأة ليس لديهم مشاعر، آه وها هو سلمان يبكي مهموما مثلي. يا الله لوكنت تعرفت إلى سلمان في بلد آخر غير بلدينا هل سنكون اصدقاء؟ وربما حبيبين؟ ربما زوجين ولم لا؟ هو إنسان وأنا إنسان لدينا نفس المشاعر نفس الشكل الفروق قليلة أنا امرأة وهو رجل، وهذا موجود في الشعوب كلها، أنا بيضاء وهو حنطي وهذا أيضا موجود لدى البشر كلهم، ما الفارق إذن؟ اللغة؟ نعم من الممكن ان أتعلم لغته ويتعلم لغتي ويكون بيننا قاسم مشترك. ديننا مختلف؟ نعم لكنه ضيَّفني في داره وألبسني ثياب أُمه وقدم لي الدواء والطعام، ما المانع من وجود الروابط الانسانية فيما بيننا؟ لم نحن نتقاتل؟ لم جئنا إليهم؟ من دقّ طبول الحرب بيننا؟ رفعت رأسها الذي أثقلته أفكارها عندما سمعت سلمان وهو يضع بعض الزرع في عربته ويجلب الغطاء ويهيئ نفسه لترحيلها. فقامت إلى الحجرة تأخذ كيس الملابس الملطخة بالدم وتنظر هنا وهناك ثم تعيد النظر إلى الكيس: ليس لي سوى هذا الكيس آخذه معي، آه نعم وهذه ملابسهم كيف أعيدها إليه؟ هل ألبس ملابسي؟

اشارت إلى سلمان تناديه وتشير اليه بملابسها هل أرتديها؟ على الفور فهم سلمان مرادها ورفض أن تغير ملابسها خوفا من أن يراها أحد بهيئتها الغريبة ثم اصطحبها إلى العربة وطلب منها أن تحشر نفسها بين صناديق الخضروات من بعد أن فرش العربة ب(الفجة) القديمة التي يملكها فاستجابت لطلبه بهدوء وسكينة فوضع الغطاء على العربة وشدّه بإحكام ثم انطلق إلى المدينة.

في وسط الطريق إلى الشارع العام استوقفه أحد ابناء عمومته سائلا إياه:

- ما الخبر سلمان؟ لماذا تخرج في هذا الوقت على غير عادتك؟ هل أصابك مكروه؟ هل تفتحت جراحك وما هذا الذي تحمله معك في العربة؟
- سلمان: (وهو يبتعد عنه ببطء) أنا بخير يا بن العم، هذه خضروات طلبها أحد زبائني، عنده دعوة غداء ويريد أن يتهيأ لها من الآن، مع السلامة.

ثم انطلق بالسرعة الممكنة في هذه الأجواء الممطرة، عندما وصل إلى الشارع العام فكر أن يغير الدخول إلى مركز المدينة إلى اتجاه آخر خوفا من الدورية أن تتبعه أو تعرف المكان الذي جاء منه فأخذ الطريق المؤدي إلى شارع النجف عبر شارع (٨٠) وعندما اقترب من نهاية الطريق شاهد من بعيد عربة الجيش الاجنبي وبعض سيارات الشرطة تلتمع اضواؤها

تحت المطر، أطفأ المحرك والمصباح وركن الدراجة جانبا ونزل منها بهدوء يرفع الغطاء عن العربة ويستنهض (إيما) التي كانت تجهل ما يجري حولها، عندما نزلت إلى الارض أشار بيده إلى مكان الدورية طالبا منها الذهاب اليهم، نظرت (إيما) في وجهه ورأت بريق عينيه اللامعتين مدت كفها إليه تصافحه فتردد برهة ثم وضع كفه على رأسها وقبّله، كما هو متعارف عنده، استدار بدراجته مسرعا ليركنها في أحد الشوارع الفرعية، ونزل يراقب (إيما) وهي ذاهبة باتجاه الدورية مرددا في نفسه: مع السلامة (إيما) مع السلامة. عندما تأكد انها وصلت إلى الدورية شاهد سياراتهم تنطلق باتجاه مركز المدينة فعرف انه بأمان، فرجع إلى دراجته عائدا إلى قريته متمنيا لو انه طلب منها صورة لها.

٢٠٢٠/٩/١

حقوق الطبع والاستنساخ للأغراض التجارية والاعمال الدرامية محفوظة للمؤلف بموجب قوانين الحماية الفكرية وحماية المؤلف النافذة.

للمراسلة مع المؤلف:
ziyadtariqz@yahoo.com
2mi.film@gmail.com

النفس الإنسانية قد يعتريها ما يخالف فطرتها ، وبما أن الانسان توّاق الى الكمال فإنه لا يلبث أن يستعيد فطرتها ، ومن هنا تنمحي الفوارق الزائفة ليكون الناس كلهم انسان، ويكون الانسان كل الناس.